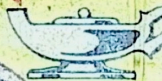


مطبوعات كتابي



الطريق إلى برّسج

الرواية التي سبقتها العالم عام ١٩٦٤ عن مآسي حرب فلسطين



الترجمة الكاملة لأحدث وأروع
قصة طويلة عن مأساة
خروج العرب من ديارهم!
للروائية الإنجليزية المعاصرة
إيثيل مانين

إيثيل مانين
الطريق إلى بئر سبع



THE ROAD TO BEERSHEBA
BY
ETHEL MANNIN

الثمن : ١٠ قروش

الناشر: الدار القومية للطباعة والنشر

مجموعة كتابي (الكتاب الشهري لتلخيص الكتب العالية)

صدر منها ٩٦ كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد في أول كل شهر . (وتطلب قائمة بها من الادارة) .

مطبوعات كتابي (الترجمة الكاملة الأمانة لشوامخ الكتب العالية)

صدر منها ٧٢ كتابا ، ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة باسترنك (دكتور جيفاجو) ، وتطلب قائمة بها من الادارة .

الأشتركات

عن ١٢ عددا من كتابي أو ١٢ عددا من مطبوعات كتابي في ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والأردن ولبنان وليبيا والعراق ١٢٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الأخرى والبلاد الأجنبية ١٦٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل . (ومن يرغب في إرسال الأعداد بالبريد « الجوى » يدفع قرق الرسم) . وترسل القيمة من مصر باذن بريد عادى ، ومن السودان بحوالاة بريدية ، ومن البلاد الأخرى بشيك على أحد بنوك القاهرة أو تحويلات مصرفية ، أو كوبونات بريد قولية فئة ٤٠ مليما قابلة للصرف في مصر ، (وتسمى صرف الكوبون ٣٧ مليما) .

مطبوعات

كتاب

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالية

رئيس التحرير : حلمي مراد



الكتاب الثاني والسبعون

الطريق إلى برّ سبع

ترجمة : الدكتور نظمي لوقا

الادارة : عمارة الجنديول - ١٤ شارع ٢٦ يوليو - القاهرة

تليفون : ٥٩٥٥٦ ، ٤٦٤٧٥

مطابع منكور وأولاده

هاتان السلسلتان . . في عهدهما الجديد

عزيزى القارىء . .

فى مستهل هذه المرحلة الجديدة من حياة (كتابى) و (مطبوعات كتابى) - السلسلتين اللتين حبوتهما بحبك واعزازك منذ اللحظة الأولى لصدورهما ، حتى اليوم ، طوال اثنى عشر عاما - أرى من حقك على ان نتبادل معا حديثا « من القلب الى القلب » ، كما ألفنا ان نتبادل فى كل مناسبة سابقة . .

والمناسبة أو « البشرى » الجديدة التى أود أن أزفها اليك - وإلى نفسى فى الوقت عينه - هو أن أمنية قديمة من أمانى قد آن لها أخيرا أن تتحقق . . والأمنية التى أعنيها ، والتى طالما تمنيتها ، هى أن أتخفف من أحد العبئين الثقيلين اللذين أخذتهما على عاتقى - مضطرا - منذ أصدرت العدد الأول من (كتابى) فى مارس عام ١٩٥٢ . . وهما : أولا ، عبء مسئوليتى كناشر للسلسلتين (بكل ما تحمل عملية النشر فى ذاتها من متاعب ، وهموم ، وأعباء ادارية والتزامات مالية وحسابية . . ومشكلات طباعة ، وورق ، وحبر ، وتسويق ، وتوزيع . . الى آخر هذه الدوامة الرهيبة !) . . وثانيا : عبء مسئوليتى عن تحرير السلسلتين ، (بكل ما تحمله عملية التحرير من مهام حبيبة الى نفسى ، وتحليق فى آفاق الفكر والثقافات والفنون . . ومعاناة لمشكلات الحرص على أمانة الترجمة وسلامة التلخيص وجمال الأسلوب . . ألخ) .

ولا أكتمك اننى لم أقدم على الاضطلاع بكلا العبتين ، حين أصدرت (كتابى) ، الا لأننى لم أجد الناشر النواقة الذى يؤمن بفكرتى ويولى المشروع ثقته ويطمئن الى نجاحه ، فيقدم على اخراجه الى حيز التنفيذ .. فكان أن اضطرت الى تنفيذه بمفردى ، وقد جرف ايمانى ترددى ، وغلبتنى حماستى له على أمرى ..

كما لا أكتمك اننى قد طالما شقيت بهذين العبتين اللذين أثقلا كاهلى طوال هذه الأعوام الاثنى عشر .. وفى الوقت الذى كانت فيه دوائر الصحافة والأدب فى العالم العربى تتجاوب بأصداء نجاح (كتابى) و (مطبوعاته) كنت أنا أتجرع غصص التعاسة والألم ، والرتاء لنفسى من أجل المصير الذى انتهت اليه ، و (الساقية) التى وجدتني مشدودا اليها ، مسئولا عن دورانها المستمر بلا توقف ، كالشور المعسوب العينين ..

.. وكلما ضقت بتعاستى ، تأججت بين جوانحي نيران الثورة على نفسى وعلى الوضع الشاذ الذى وجدتني أسيرا له .. وضع « الكاتب » الذى يعمل « ناشرا » ، والأديب الذى يقضى أيامه ويفنى حياته فى مواجهة مشكلات الادارة والطباعة ، والجبر والورق ، والفواتير والحسابات .. والعياذ بالله !

.. واشتقت الى أن أكون أديبا وكاتبا ، وحسب ! .. أقرأ ، مستمتعا بالقراءة .. وأكتب ، مستمتعا بالكتابة .. كما بدأت .. وكما هى طبيعتى ، ومزاجى ، وحلم حياتى ! .. اشتقت الى ذلك شوقا كاد يفرينى بأن أحطم كل عائق يقف بينى وبين حلمى العتيد ، ولو كان هذا العائق (كتابى) ! .. وحين كان حلقى على نفسى يقهرنى ، واحساسى بالارهاق يسول لى أن أتوقف عن إصدار كتابى ! .. أو يحملنى على الأقل على التراخى فى إصداره بانتظام ، حتى

أتحرر بعض الوقت من « الأسر » ، وأستريح من جر الساقية والدوران حولها كالثور ، معصوب الغنين .. فأستمع بقراءتى المحببة ، فى غفلة من سوط الجلاذ الذى يلهب ظهرى .. كانت صيحاتك تلاحقنى : كتابى يجب أن يستمر .. كتابى يجب أن يصدر بانتظام .. فكنت أرضخ لمشيتك ، وينسينى اشفاقى على (كتابى) ، اشفاقى على نفسى .. فأستسلم لمصيرى ، وأمضى فى طريقى ، كاسف البال ..

.. حتى سنحت فرصة لمست فيها من الوزير الانسان ، راعى الثقافة والآداب والفنون ، الدكتور محمد عبد القادر حاتم ، غيرة - مشكورة - على كتابى ومطبوعاته ، وقلقاً - لا أدرى كيف أصفه - من أجل عدم انتظامهما ، وتقديراً كريماً للرسالة التى يستهدفانها .. وترحيباً - يثلج صدرى - بأن تتولى « مؤسسة الأنبياء والنشر » عنى عبء إصدار السلسلتين اللتين أفنت متاعبهما زهرة عمرى ، والتهمتا خير سنوات حياتى .. فتعلقت مرحباً بطوق النجاة ، وداعبني - من جديد - الأمل فى أن أعود كاتباً ، وأديباً ، وحسب .. أحلق فى دنيا الأدب ، والفكر ، والفن ، كالنحلة ، لأجمع لك من كل زهرة من أزهار المعرفة رحيقها العذب .. ومن كل نبع من ينابيع الثقافة قطرات وقطرات ..

ولست أزعم أنني قد تخففت - بعد - من الأعباء « المزدوجة » التى أرهقتنى ، فليس ذلك بالأمر اليسير ، سيما فى البداية .. كما لا أزعم أن العدد الأول الذى بين يديك يرضينى ، أو يرضيك - فان أحلامى لكتابى لا تقف عند حد - وانما هو مجرد ايدان بالعودة .. عودة العجلة الى الدوران .. وما هو الا بداية لأعداد متلاحقة أرجو أن يتفوق كل عدد منها على سابقه .. وكلما أتاح لى الظروف أن أتخفف

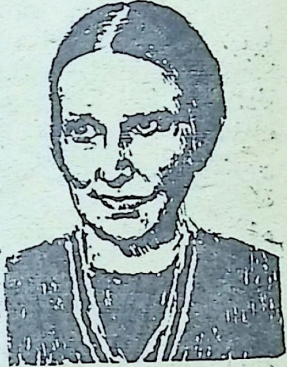
من قدر من الأعباء الادارية ، استطعت أن أعطي التحرير قدرا أكبر من الجهد ، ومن الوقت ، ومن الأعصاب . . .
 فاذا أسعدتك - أيها القارئ العزيز - عودة (كتابي) و (مطبوعات كتابي) الى الصدور والانتظام ، فلتكن غيبتك بعودتهما دينا في عنقك للوزير الذي فتح للثقافة في بلادنا آفاقا جديدة ، تنفس فيها ، وتزدهر ، وتترعرع . . . وما عليك الا أن تتوجه بالشكر العميق ، النابع من القلب ، للدكتور محمد عبد القادر حاتم ، الذي أتاح لكتابي ومطبوعاته مواصلة رسالتهما الثقافية التي آمن بها ، فرعاها . . . فجاءت هذه الرعاية حلقة جديدة من حلقات عمله الدائب لتحقيق « الثورة الثقافية » التي ينادى بها في كل مناسبة قائد ثورتنا المباركة الرئيس المحبوب جمال عبد الناصر . . .

« الثورة الثقافية » التي خلقت مفاهيم جديدة لدور الدولة في رعاية الآداب والعلوم والفنون ، وجعلت من وزارة الثقافة لواء ضخما يستظل به جميع العاملين في حقول المعرفة ، سواء عن طريق أجهزة الوزارة ذاتها ، أو عن طريق مؤسساتها العامة ، وفي مقدمتها المؤسسة المصرية العامة للأنباء والنشر والتوزيع والطباعة ، التي أخذت على عاتقها مهمة ضخمة هي إصدار كتاب جديد كل ٦ ساعات ، وقطعت في هذا السبيل شوطا بعيد المدى ، ملموس الأثر .
 وفي ظل هذه المفاهيم الجديدة ، لنسر معا أيها القارئ العزيز على بركة الله .
 والله ولي التوفيق .

حلمي مراد

المؤلفة . . في سطور

* « ايشيل مانين » - مؤلفة هذه القصة الشائقة - روائية انجليزية معاصرة ، من أصل ايرلندي ، ولدت في لندن عام ١٩٠٠ . وهى تعتبر « عصامية » ، ثقفت نفسها بنفسها - اذ اضطررتها الظروف الى ترك المدرسة فى سن الرابعة عشرة ، وبدأت حياتها العملية فى الخامسة عشرة ، ككاتبة اختزال فى وكالة للاعلانات .



* ثم تدرجت فى العمل حتى صارت - فى سن ١٧ سنة - مساعدة

لمحرر المجلة المسرحية والرياضية (ذى بليكان) .

* وفى سن الثانية والعشرين ، كتبت روايتها الطويلة الأولى ، ودخلت بها مسابقة للقصة الطويلة .

* ومنذ ذلك التاريخ دأبت على نشر رواية طويلة كل عام ، بانتظام . . كما ألقت عدة كتب فى أدب الرحلات ، وصفت فيها سياحاتها فى كل من (بورما ، الهند ، روسيا ، المغرب ، مقاطعة بريتانى (بفرنسا) ، اليابان ، ثم الشرق الأوسط) . . وقد ترجمت كتبها الى اللغات : الفرنسية ، الألمانية ،

الهولندية ، الاسبانية ، الايطالية السكندنافية

* وهذه القصة الممتعة التى صورت فيها مأساة العدوان الصهيونى الغادر على عرب فلسطين خلال حرب ١٩٤٨ ، هى أحدث رواياتها ، وقد صدرت فى لندن منذ شهر واحد ، ولم تترجم بعد الى أية لغة ، سوى ترجمتها هذه الى العربية .

اهداء الكتاب

الى اللاجئين الفلسطينيين ومن اجلهم .
اولئك الذين قالوا لى فى كل الاقطار
العربية التى استضافتهم :

— لماذا لا نكتبين قصتنا نحن ، قصة
الخروج الآخر ... خروجنا نحن ؟ !

المؤلفة

« وأعطيتكم ارضا لم تتعبوا عليها ومدا
لم تبنيوها وتسكنون بها ، ومن كروم وزيتون
لم تفرسوها تاكلون » .

يشوع : ٢٤ : ١٣

مقدمة المؤلفة

لا بد من ايضاح .

حتى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ كان ثمة بلد يسمى فلسطين ،
هو الوطن العتيق للفلسطينيين القدامى ، وهو بلد عربي
الصبغة بصورة واضحة . وحين صدر اعلان « بلفور » في
نوفمبر سنة ١٩١٧ مؤنفا بان الحكومة البريطانية تؤيد « قيام
وطن قومي لليهود في فلسطين » كانت غالبية السكان هناك
من العرب ، بنسبة تزيد على ٩٠٪ . وكان في فلسطين في
ذلك الوقت نحو ٥٠٠.٠٠٠ يهودى . اما المسلمون والمسيحيون
فكان عددهم وقتئذ نحو ٦٧٠.٠٠٠ . ولكن في سنة ١٩١٥
كان السير « هربرت صمويل » اليهودى والصهيونى البارز
قد نادى في مذكرة بعنوان « مستقبل فلسطين » بهجرة ثلاثة
او اربعة ملايين من اليهود الى فلسطين تحت الحماية
البريطانية . فوضحت من ذلك المطامع الصهيونية بصورة
لا خفاء فيها ، وثبت ان ما يرمون اليه ليس انشاء موطن قومي
وملاذ لضحايا الاضطهاد من اليهود في مختلف البلدان ، بل
الهدف الحقيقى هو اقامة دولة يهودية مستكملة الاركان !

ولما صدر اعلان بلفور بعد ذلك بثلاث سنوات تقريبا ،
واجه واقعا أقل من ذلك بكثير ، فكان الحل البديهي في نظر
اليهود هو ازدياد الهجرة اليهودية الى فلسطين بحيث يصبح
اليهود هناك أغلبية . وفي سنة ١٩١٩ اصدر الدكتور
« وايزمان » الزعيم الصهيوني وقتئذ تصريحه المشهور بأن
فلسطين ينبغي أن تغدو « يهودية مثلما تعتبر انجلترا
انجليزية » .

وفي سنة ١٩٢٠ تجسم اعلان بلفور في صورة الانتداب
الانجليزي على فلسطين . وكان العرب حين قاتلوا في صف
الحلفاء في الحرب العالمية الاولى ضد الأتراك قد اعتقدوا
انهم انما يحاربون في سبيل استقلالهم . فاذا بهم ينكبون
بالانتداب الانجليزي والفرنسي بدلا من نيل استقلالهم . وبذلت
محاولة للتحكم في الهجرة اليهودية ، ولكن الهجرة غير المشروعة
ظلّت في ازدياد عن طريق مكتب للجوازات المزورة في برلين ،
فازدادت عداوة العرب ، ووقع شغب وحدثت اضطرابات
وفرضت احكام عرفية واستمر الكفاح الوطني للحصول على
الاستقلال .

وعند نشوب الحرب العالمية الثانية لم يكن الوطن القومي
لليهود قد تحقق في صورة ذاتية ، ولكن تعداد اليهود كان قد
لغز من ٥٠٠.٠٠٠ الى ٦٠٠.٠٠٠ ، وكانت حكومة الانتداب قد
منحت اليهود سيطرة متزايدة على مملكات البلاد الاقتصادية .
وكانت الصناعات الصهيونية تتمتع بحماية الحكومة ، في حين
كانت القرى العربية تحمر لتفسيح المجال للمستعمرات
الصهيونية . وصار لليهود مستشفياتهم ومدارسهم ومنظماتهم
السياسية ، وتمتعوا بمعاملة متحيزة من حماة البريطانيين .
وكما كانت الحرب العالمية الاولى سببا في اعاقا الطامع
الصهيونية ، كذلك عاقبت الحرب العالمية الثانية الامل العربية

الوطنية ، وثبت ان الاضطهاد النازى لليهود فى المانيا كان سندا قويا للصهيونية . . فتألفت لجنة انجليزية امريكية — ثلاثة من بين اعضائها الستة من غلاة الصهيونية — زارت فلسطين فى سنة ١٩٤٦ وأوصت فى تقريرها بادخال مائة الف يهودى فوراً الى فلسطين ، وقد استعجل الرئيس (الدمية) ترومان تنفيذ ذلك ، مع ترك الباب مفتوحاً لمزيد من التهجير مستقبلاً ! ولما لم يصل مؤتمر فلسطين المنعقد فى لندن فى سنتى ١٩٤٦ ، ١٩٤٧ الى اتفاق ، لان ممثلى العرب فى ذلك المؤتمر طالبوا بقيام دولة عربية ديمقراطية مستقلة فى فلسطين ، احيلت « مسألة فلسطين » الى الامم المتحدة ، وخصصت دورة غير عادية للفصل فيها . وتحت الضغط الصهيونى الذى تؤيده الولايات المتحدة ، أوصت اللجنة الخاصة التى افتتها الامم المتحدة لشئون فلسطين بتقسيم ذلك البلد .

وفى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ قامت الجمعية العمومية بمنظمة الأمم المتحدة المنعقدة فى واشنطن باقرار تقسيم فلسطين ، بأغلبية ٣٣ صوتاً ضد ١٣ وامتناع ١٠ عن التصويت . وكانت بريطانيا من الدول الممتنعة عن التصويت . ونجد فى مذكرة ترومان كلاماً عن الضغط الصهيونى وعن « التكتيك » الذى استخدم للحصول على هذه الأغلبية الساحقة ، اذ كتب يقول : « لم تكن ثمة حركات للضغط على الولايات المتحدة لم يسبق لها مثيل من قبل فحسب ، بل ان البيت الابيض ايضا كان هدفه لئلا يرتفع من الضغط . فلسبت اعتقد ان البيت الابيض تعرض لقدر من الضغط والدعاية كاذبى تعرض له فى هذه المناسبة . وقد ازعجنى وضايقتى الحاح بضعة من زعماء الصهيونية المتطرفين ، مدفوعين بعوامل سياسية ومستخدمين تهديدات سياسية . بل ان بعضهم قد وصل به الامر الى ان اقترح علينا الضغط على الدول الكبرى كي تصوت فى صالحهم

عند انعقاد الجمعية العامة . »

وكذلك صرح « روبرت نوفيت » نائب وزير الخارجية بأنه لم يتعرض في حياته اطلاقا لكل ذلك الضغط الذى وجه اليه اثناء المراحل النهائية للتصويت .

وخطة التقسيم التى اقترتها منظمة الأمم المتحدة اعطت ٦٠٪ من فلسطين — بما فى ذلك اخصب المناطق — لثلاث السكان وهم اليهود . اما المليون فلسطينى وهم كل سكانها تقريبا فقد انتزعوا من مواطنهم وجردوا من املاكهم خلال الحرب التى نشبت بين العرب واليهود على اثر ذلك القرار . وكل ما تبقى من ارض فلسطين العربية على الضفة الغربية لنهر الاردن ضم الى شرق الاردن على الضفة الشرقية من ذلك النهر . وبذلك قامت المملكة الهاشمية الأردنية . والشريط الضيق المتاخم لساحل البحر الابيض والبالغ طوله ٢٥ ميلا وعرضه ٥ اميال ، (وهو كل ما تبقى من ولاية غزة ، احدى ولايات فلسطين الحرة) ، قامت مصر بادارته ، وقد منح الرئيس ناصر فى سنة ١٩٦٢ تلك المنطقة دستورا للحكم . ولا تزيد هذه المنطقة على ان تكون معسكرا فسيحا للجائنين .

ومن بين المليون من الفلسطينيين على وجه التقريب الذين فروا من بلادهم نتيجة للارهاب الاسرائيلى — الذى من امثله مذبحة (دير ياسين) فى ابريل سنة ١٩٤٨ — او الذين طردوا من بيوتهم — (الامر الذى ينكره الصهيونيون رغم الأدلة الدامغة) — من هؤلاء المليون يعيش اكثر من نصف مليون فى اسوأ حال بتلك المعسكرات التى تمدها الأمم المتحدة بالمعونة منذ اواخر سنة ١٩٤٩ . اما الباقون فقد استوعبتهم بلاد مضيفة . ولكن هؤلاء وهؤلاء جميعا يطالبون باستعادة وطنهم لاعادة اسكانهم . وما من واحد منهم ، سواء فى المعسكرات او فى خارجها ، تلقى « بنسا » واحدا على سبيل التعويض .

عن بيوتهم وارضيتهم واموالهم التي استولى عليها الاسرائيليون!

وفي كل عام تعيد الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة تأكيداتها لحقوق عرب فلسطين اللاجئين في العودة الى بلادهم . او في التعويض الكامل اذا لم يرغب احد منهم في العودة الى حيث سيكون مواطنا من الدرجة الثانية في دولة يهودية . ولكن هذه القرارات لا توضع قط موضع التنفيذ . بل ان مسز جولدا ماير وزيرة الخارجية الاسرائيلية اعلنت على النقيض من ذلك بصورة قاطعة ان « سياستنا لم تتغير . فنحن لن نقبل لاجئا واحدا ! »

ولقد قسمت بلاد اخرى ولكنها بقيت بعد التقسيم محتفظة بكيانها ولها وجودها ومسمياتها على الخرائط ويسكنها اهاليها . اما فلسطين فقد انقطع وجودها من حيث هي اسم ومن حيث هي بلد . وانقطع كذلك وجود الفلسطينيين من حيث هم امة .

انه عصر التشتت الفلسطيني .

الكتاب الاول

الخروج

— ١ —

كانت درجة الحرارة في السهل الساحلى اكثر من مائة درجة
فهرنهايت في الظل — ذلك الظل الهزيل الذى تلقيه اشجار
الزيتون ، او ظل الصخور الاحمر . فلو لا ضغط الارهاب
لما استطاع احد ان يسير في تلك الحرارة فوق تلك الأرض .
فالكثائب الاسرائيلية تطرد الناس بعيدا عن الطرق ليوغلوا
في البرية بين التلال الجرداء التى لا نهاية لها .
والأرض رملية لا تطيق القدم العارية ان تمسها . أرض
قوامها الرمال والصخور والحصى الرمادى والحسك . انها
أرض متموجة تنتهى الى تلال متتابعة لا تلبث ان تذوب في سماء
استنزفت الحرارة كل ما فيها من الالوان . فالمنظر فسيح يمتد
الى ما لانهاية في جميع الاتجاهات . وبرية الأردن الواسعة
تفص الآن باناس معظمهم من النساء والأطفال كأنهم الجيش
المشتت يتعثر فوق الصخور ويشق له طريقا بين الحصى ،
يرتقى الروابى الرملية في اعياء وقد استنزفت جهده العرق ،
يسلط ليلاوم ويلاوم ليسلط مرة اخرى . والنساء محتضنات
اطفالهن يسحبن المعائن ، والمعائن يتهاوون على الأرض
ليعجزون عن النهوض . ولكن الجموع الزاحفة لا تكف مع

ذلك عن التقدم ، يستحث خطاها الخوف ، تحت وهج الشمس يعمى الأبصار . يتقدمون بين الصخور لأنهم ان لم يتقدموا قضى عليهم بالموت من ضربة الشمس او من العطش او من الاعياء !

وهم يشعرون على الدوام بالخوف من تلك الطائرات المدنية السوداء الصغيرة التى تطير على انخفاض شديد بحيث يستطيع المرء ان يرى من فيها من الرجال ، تحوم فوق رؤوسهم كأنها الطيور الجارحة ، على نحو ما حدث فى الليل . . فى تلك الليلة الأخيرة المروعة فى (اللد) .

لقد ظل « انطون منصور » يتذكر الى امد طويل صوت تلك الطائرات الغريب ، وانه لصوت يختلف عن صوت اى طائرة اخرى . ويذكر الخوف الذى اثارته ، وانه لخوف يختلف عن اى خوف عرفه فى سنوات عمره الاثنتى عشرة . ان شيئاً فى رأسه بدا له انه ينفجر مع ذلك الصوت ، ثم تدفق الدم بلا انقطاع من انفه . وفى البداية توقفت امه عن السير وحاولت ان توقف النزيف . ولكن بعد قليل لم تبق لديها بقية من الطاقة فالتفت برأسها وتطلعت اليه ولم تستطع ان تتكلم . فلم يكن احد ينظر الى احد او يكلم احداً او يصنع شيئاً لاحد . لأنه لم يبق لدى احد منهم سوى الاصرار على الحياة والمقاومة الموت الذى تفرضه عليهم الحرارة الشديدة والاعياء والظما المهلك . فليس هناك مجال للتفكير ، بل المجال كله للخوف . ولا مجال للعاطفة ، بل المجال كله للتعاسة .

وكان « انطون » يتلفت بين الحين والحين لينظر الى امه كى يتأكد انها لم تزل هناك . فمن السهل ان يفقد المرء اى احد فى ذلك الحشد من الزحام . وشمة اطفال يتخبطون بين الحمى وهم يصرخون لأنهم فقدوا ذويهم وما من احد يلقى باله اليهم . فاذا تعلقوا بأحد باكين منتحبين دفعهم بعيداً عنه .

حتى النساء كن ينظرن اليهم من غير شفقة . ورأى انطون وهو في شبه دوار امرأة تلقى فجأة بالطفل الذي كانت تحمله الى بطن حفرة حيث استقر صارخا . وهضت المرأة في طريقها قدما . فالجميع يسرون الى الأمام والشمس تنهال عليهم بشمواظها تريد ان تقتلهم ، والطائرات السوداء تحوم كالأصقور تتربص الفرصة للانقضاض من السماء التي صهرتها الحرارة ، والأرض التي لا ترحم ولا تلين تعكس ما تتلقاه من حرارة الشمس وتصليهم به في وحشية .

كان الجميع في طريقهم الى المدينة الجبلية الصغيرة (رام الله) ، التي تبعد بضعة أميال عن القدس . ولكنهم وقد أبعدوا عن الطريق وطرح بهم الى جوف البرية لم يعودوا يبصرون طريقهم ، وكان أقلية من صغار السن هم الذين يدركون الاتجاه الصحيح ، أما البقية فكانوا يسرون صوب الشرق خبط عشواء . فكل ما يعنيههم أن (اللد) ينبغي أن تكون من خلفهم . (اللد) التي رددت شوارعها هذا الصباح أسداء مكبرات الصوت التي أذاع بها الاسرائيليون المنتصرون أوامرهم الى السكان :

— اخرجوا ! اذهبوا الى الملك عبد الله !

ومع انطون كان يسير غلام أعمى أكبر منه سنا بقليل هو ابن خادم ضيعة أبيه . كانا يمشيان ويد انطون اليمنى قابضة على يد (أمين) اليسرى . ويدهما معا مرفوعتان الى كتف انطون بحيث يظل الغلام الأعمى ملتصقا به . وقلما كانا يتحدثان . ولا كان أحد منهما يشكو أو يتذمر .

أما «بطرس منصور» — والد انطون — فكان يسير مع أخيه فريد ، وكلاهما من ذوى الوزن الثقيل ، لم يألفا السير أكثر من بضع خطوات الى سيارتهما ، فلقد كانا من أهل الثراء ، وكانت حياتهما على الدوام سهلة هينة ، من الناحية المادية

على الأقل . ومن ورائهما سارت زوجتهما : «ماريان» زوجة بطرس الانجليزية ، و « ماجدة » زوجة فريد ، وابنتها الكبرى نادية . والى جوارهن كان طفلا نادية الصغيران يتعثران ويكيان ويشكوان بلا انقطاع من التعب والعطش . وكانت شفاههما قد ابيضت كأنما عليها طبقة من الملح . فكانت ماريان وسلفتها تتناوبان حملهما على فترات قصيرة وهما تترنحان وتتعثران فوق الأرض الصلدة . أما نادية فكانت تمشي خائضة الرأس غير مكترثة بعذابهما ، منطوية على جحيمها الخاص . ولكم تمت لو كانت مسلمة كى يتسنى لها أن تخفى وجهها خلف نقاب .

منذ بضعة ايام احدثت الكتائب اليهودية بالرجال من جميع الأعمار واعتقلوهم في مسجدى المدينة ، وكان زوجها «نصرى» من بينهم ، وكذلك أبوها واعمامها واخوالها وابناء العم والخال وإخوتها . وبالأمس اطلق سراح أولئك الرجال ولكن نصرى لم يكن بين من أطلق سراحهم ، لأن جميع من هم في سن التجنيد قد ارسلوا الى معسكر للاعتقال . هذا بالنسبة لمن كانوا في المسجد الكبير . أما الثلاثمائة رجل الذين كانوا معتقلين في المسجد الصغير فلم يفرج عن أى واحد منهم اذ حدث منهم شغب صغير اخمد بنيران المدافع الرشاشة . وتقرر عدم الافراج عن أحد منهم اطلاقا .

وفى البداية كان من رأى جميع الرجال المقيمين فى دار منصور التوجه الى المسجد الصغير لأنه اقرب الى الدار ، وبذلك يتحاشون اختراق المدينة والتحرش بالجنود الاسرائيليين من الجنسين . وكان منظر النساء المجندات غريبا وهن يحملن مدافع شتين وقد ارتدين سراويل قصيرة تكشف عن أفضلهن البضة العارية . ولكن منصور عارض فكرة الذهاب الى الجامع الصغير قائلًا ان الأفضل الذهاب الى الجامع الكبير والبقاء

هناك قرب الأبواب ، لأن اشاعة كانت قد سرت بين الناس مؤداها أن ثلاث سيارات مسلحة تابعة للفيلق العربى ظهرت على مشارف المدينة ، ومن المؤكد ان هذه السيارات ستتلوها قوات مسلحة من ذلك الفيلق . وسيكون الجامع الكبير أول مكان يحررونه . ولما كان بطرس رأس الأسرة فقد اصغى الجميع لكلامه باحترام وذهبوا عن بكرة أبيهم في صحبته الى الجامع الكبير .

وقبل عودة الرجال حضر جنديان اسرائيليان الى « دارة الخير » - وهو اسم دار منصور - في طلب الماء . ومن وراء قضبان نافذة في الطابق الأول استقرت النظر اليهما نادية وخاتمة تدعى « رندا » تقوم برعاية شئون الطفلين ، ومعهما بضعة نساء أخريات ، فانتابهن فرح شديد ، بيد ان نادية وجدت في نفسها الشجاعة كي تصيح بالجنديين :

— ماذا تريدان ؟

ونظر الجنديان الشابان الى فوق وضحكا . ثم اجاب احدهما بلغة عربية ركيكة :

— لا تخفن . نحن من « الهاجاناه » ولسنا من « شتيرن » . لا نريد شيئا سوى الماء . الحر شديد ونحن ظمآن ! تعطفن علينا !

وقال شبيئا للجندي الآخر الذى ضحك ثم انزل الاثنان مدقعى (شتين) عن كتفيهما واسنداها الى جذع شجرة جزورينا فى مواجهة مدخل الدار ، ثم التفت الجندي الذى كان قد طلب الماء صوب النافذة ، وقال :

— ها انتن ترين . لسنا مسلحين !

وكان شابا وسيما ذا ابتسامة صافية كابتسامة الاطفال . ولم ترد نادية على ابتسامته بابتسامة ، ولكنها قالت :

« سترسل اليكما بماء » . . وامرت خادمتها « رندا » بأن

تحمل اليهما ابريقا من الماء المثلوج ، فقالت ماريان للخادمة فجأة :

— خذى الماء فى ابريق من الأباريق البللورية الفاخرة .
وخذى ايضا كوبين من البللور . يجب ان نريهما اننا شعب
متحضر ! لو كان بطرس هنا لكانت هذه مشيئته . فهما على
كل حال ضيفانا .

فاحتجت نادية قائلة :

— ولكنهما من الأعداء !

— الا انهما استضافا نفسيهما فى دارنا . ثم هما شخصان
تبدو عليهما امارات المودة .

وذهبت رندا فأحضرت الماء المثلوج فى ابريق من البللور
ووضعت الى جواره كأسين من البللور فوق صينية من الفضة،
ونزلت حافية القدمين فوق السلم الرخامى العريض ثم اجتازت
بهو المدخل المرصوف بالفسيفساء الى الباب الأمامى . وعندما
فتحت الباب كان الجنديان جالسين على سياج شرفة المدخل
المنخفض ، فأشارت لهما الى الصينية التى وضعتها على
منضدة داخل الباب مباشرة ، فوجه اليها الجندى الذى كان
قد طلب الماء كلمات الشكر باللغة العربية . أما الآخر فتقدم
الى الامام وقال لها بلغة انجليزية « خفاء » :

— هالو أيتها الحسنة ! اتكلمين الانجليزية ؟

وكانت رندا فى الواقع تتكلم شيئا من الانجليزية ، التى
تعلمتها وهى فى خدمة آل منصور ، فهزت رأسها . وقال لها
الآخر ، عن زميله :

— انه لبنانى أمريكى ولا يعرف العربية كثيرا .

ثم صب كأسا من الماء وتجرعها وصب كأسا أخرى .
أما زميله فشرب نصف كأس من الماء ثم طوح بالكأس الى
الأرض فتطايرت شظايا البللور فى كل اتجاه وراح يضحك فى

عصبية وهو يقول :

— اننا نصنع ذلك في حفلات الزفاف اليهودية . فهو عمل

رمزى !

ولم تفهم رندا ما قال ، ولكنها أجفلت متراجعة الى الوراء ،
وقد أفزعها لهجته وهيئته ، مستاءة لتحطيم الكأس الثمينة .
فمد يديه وقبض على معصمها وجذبها اليه قائلاً :

— هيا يا حسناء . هيا بنا نحتفل بالزفاف !

فصرخت الفتاة وناضلته بعنف ، الا انه كانت ثمة حجرة
للاستقبال يفضى اليها باب في البهو فجذبها الى داخل تلك
الحجرة واغلق دونهما الأبواب . وضحك الجندي الآخر وصب
لنفسه مزيداً من الماء .

واتت صرخات رندا بنادية وماريان والنساء الأخريات الى
رأس السلم . . بينما صاحت ماريان الانجليزية في حدة :
— ما الخبر ؟ ما الذى يحدث ؟ أين الخادمة ؟

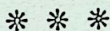
فضحك الجندي ثم قال :

— انها بسبيلها الى فقد بكارتها كما يبدو من صوتها !

وكانت ماريان قد اندفعت تنزل السلم في غضب أعمى ،
وتبعتها نادية . وكان الجندي الآخر في الانتظار عند نهاية
السلم فأطبقت ذراعاها حول نادية بمجرد نزولها . وضحك
ضحكة النصر اذ وجدها تناضل وتصرخ وترفس ، وقد تسمرت
ذراعاها الى جانبيها ، وكانت قبضته في منتهى الشدة ، فرفعها
مدى الخطوات القليلة عبر البهو الى الحجرة ، والتفت من
فوق ظهره عندما وضع يده على مقبض الباب وقال لماريان :

— كل شيء على ما يرام يا أمه . في وسعك ان تنصرفي !

وبعد ذلك صفق الباب في وجه ماريان . . وادير مفتاح في
قفله . . وارتفعت صرخات نادية وصيحاتها فطغت على
نحيبها !



كانت رندا تسير بثقال ومشقة خلف نادية والمرأة الانجليزية . وكأنت تمشي معها خادمت آخر ممن يعملن في دار منصور وضيعته ، وأانس متباينون ممن اووا الى تلك الضيعة في الأيام والليالي القلائل الأخيرة — ولقد بلغ عدد من لاذوا في النهاية بذلك البيت الكبير العريق المسمى (داره الخير) الى ان اعتقل الرجال ، قرابة مائة شخص . .

وكانت الفتاة تعاني من الصدمة وينتابها الدوار وهي سائرة أشبه بحيوان مصعوق ، غارقة في تعاستها الى درجة لا يمكن ان تشعر معها حتى بالحر او العطش ، وقد استحوذ عليها الرعب الى درجة تعجز معها عن الشعور حتى بالخوف .

وكانت المرأة الانجليزية فريسة مثلها للرعب . فباعتبارها سيدة الدار كان في وسعها أن تلغى امر نادية الى رندا بانزال الماء الى هذين الجنديين اليهوديين . كان في وسعها أن تمنع ذلك وأن تبقى الدار مغلقة الأبواب في وجهيهما . . اجل ، كانا حريين في هذه الحالة ولا شك أن ينسفا قفل الباب بالرصاص . ويقتحما الدار . ولكن في تلك الحالة على الأقل ، حتى لو تم اغتصاب نادية ورندا ، لم تكن لتلحقها شخصيا اية مسئولية ادبية مما تشعر بوطأتها الآن على كاهلها . ولقد عاد بطرس بعدئذ من الجامع من دون «نصرى» وقد حطمته أنباء المذبحة الوحشية التي وقعت في الجامع الصغير ، ولم تكن زوجته قد أخبرته بعد بما حدث لنادية والخادمة . وفريد ايضا لم يكن بلغه النبأ المزلزل !

على أن بال « هاريان » مشغول الآن الى اقصى حد بشأن زوجها بطرس . اذ كيف يستطيع رجل في مثل سنه وقد جاوز الستين ، لم يالف السير حتى على الطرق الممهدة ، مصاب بولة

في القلب ، أن يظل حيا بعد ساعات من التفتت المستمر فوق
هذه الأرض الوعرة القاسية ، في هذا الحر المحرق ، ومن
غير ماء ؟

كان يمشي على غير هدى ، ويضرب في طريقه خبط عشواء
مثلما يفعل المسنون حوله من الرجال والنساء ، فيضع قدما
امام اخرى من غير تفكير ، وبطريقة آلية ، لا لشيء الا لانه
لا مناص له من ذلك ، والا فليس امامه سوى السقوط على
الأرض بين اكداس الحصى الرمادى اللون ونبات الحسك
الشائك ، حيث يقضى نحبه . . مثلما قضى كثيرون غيره نجبهم
عندما عجزوا عن الاستمرار في المناضلة ، فخرؤا على الأرض
لاهثين فاغرى الافواه في ذلك الظل المحمى تحت الصخور ،
لو في خميلة عارضة من خمائل الزيتون المتناثرة بين الاحجار ،
وهم يئنون :

— ماء ! أعطونا ماء !

وكان الظمأ الكبير قد بدأ ينتاب بطرس قبل ان يطردوا جميعا
الى البرية . ولم يكن معهم من مقتنيات الدنيا الا الثياب التى
يرتدونها ، بعد أن جردوا من ساعات معاصمهم واقلام حبرهم ،
بل ومن خواتم الزواج . لقد بدأ ظمأه فى المسجد . وكان
بالمسجد ماء فى الميضاة حيث يتوضأ المؤمنون من صهريج قبل
أن يؤدوا الصلاة ، ولكن الحراس الاسرائيليين تبولوا فى ذلك
الصهريج وهم يقهقهون ويهيبون بالفلسطينيين قائلين :

— هيا تعالوا واشربوا ! وستجدون مذاقه طيبا !

ولما رجع الى البيت وجد به ثلاثة جنود ، رجلين وامرأة ،
واقفين بجانب سيارته عند رأس الممر الطويل المغروس
بأشجار النخيل والجزورينا المفضى الى داره . وكأنت المرأة
شابة وسيمة ذات عينين قويتى النظرة ، فيها اعتداد شديد
بالنفس يبلغ حد السلاطة ، ففرست فى ظهره مدفع ستين

وسألته بلهجة المانية واضحة جدا في نطقها الانجليزي :
— اتكلم الانجليزية ؟

فلما قال لها نعم طلبت منه مفاتيح السيارة ، فسلمها اليها ،
وركب الجنود الثلاثة سيارته ، واطلت عليه المرأة المجندة من
النافذة المجاورة لمقعد السائق لتقول له :

— من الخير لك ولأسرتك أن تغادروا الدار بسرعة ، والا
فلن تساوى حياتكم جميعا فلسا واحدا !

وضحك رفيقاها . وعندئذ استطردت مزهوة بوقاحتها :
— حتى ولا ثمن الرصاصة !

ثم بصقت عليه .. وانطلق الثلاثة بالسيارة .
اما بطرس فوقف عند رأس سلم مدخل بيته يرقب السيارة
الكبيرة البيضاء وهي تنهب ممر أشجار الجزورينا ، وهي وقفة
طالبا وقفها باعتباره رب البيت المضيف يودع ضيوفه . ثم
دخل البيت في تناقل واعياء .. وبدأ الاستعداد للجلاء .
وكان المفروض أن يتسنى الحصول في المدينة على سيارات
أجرة تنقلهم الى (رام الله) . وحتى ان لم ينجحوا في
الحصول على أكثر من سيارة واحدة فقط فقد كان في وسع
بعضهم ان يستقلها الى رام الله ليعود منها بما يكفي لنقلهم
جميعا .

ولكن عندما وصلوا الى المدينة لم يجدوا بها أى أدوات من
أدوات النقل ، من أى نوع .. فالسلطات العسكرية الاسرائيلية
قد استولت عليها جميعا ، والعربات المزودة بمكبرات الصوت
تذرع الشوارع آمرة الناس بمغادرة المدينة في مدى نصف
ساعة ! .. وإذا كانت الشوارع غاصصة بخليط متزاحم من
الناس ، وكانت الكتائب في كل مكان ، وقد أسكر الجنود
النصر ، فهم على استعداد لاطلاق النار لأوهى الأسباب ، أو
لغير سبب على الإطلاق !

وكان ثمة عدد من الفتيان والفتيات في ازياء عسكرية يتجولون هنا وهناك حاملين في كل يد من أيديهم دلوًا مملوءًا بساعات المعصم واقلام الحبر وسائر أنواع الحلى والمجوهرات ... وها هو جندي يقف عمدا امام جماعة من النساء المحجبات اللائذات بباب أحد الحوانيت ويفك ازرار بنطلونه ويشرع في التبول تحت انظارهن مباشرة . ولما أبصره زملاء له من الجنود يصنع ذلك الصنيع القبيح أخذوا يقومون بإشارات بذيئة يوجهونها الى النساء المحجبات المحتشمات !

وكان بطرس وهو واقف على ناصية أحد الشوارع مع زوجته ماريان وابنه انطون ، وأعضاء آخرين من اهل بيته ، قد رأى ذلك الحادث الشائن فتقلصت يده اليمنى على الملبص الفضى لعصاه التي يحملها على الدوام وقال :

— انهم يأتون بكل ما من شأنه أن يذلنا !
ولكن ماريان وضعت يدها على ذراعه وقالت له :
— انهم لا يعرفون خيرا من هذا . هيا بنا ! فلعلنا نظفر بشيء نركبه ونحن في الطريق .

والكن لم تكن ثمة مركبة ولا دابة ولا طريق .
لا شيء سوى البرية ، وحرارة النهار التي أخذ يشتد اوارها .

- ٢ -

ولم يدرك الفلسطينيون على وجه التحقيق المدى الذى صمم
مغتصبو أرضهم على الوصول اليه فى اذلالهم ، الا بعد ان
وجدوا انفسهم فى البرية . فهناك جرد هذا الشعب الأبى
الكريم من كل خصائص الانسانية . وثمة ظروف لا يحتفظ المرء
فيها الا بشيء واحد هو تصميمه على البقاء . وفى تلك الظروف
تتخلى الأمهات عن أطفالهن لتلتهمهم بنات آوى ، لأنهن عجزن
عن حملهم خطوة أخرى ! .. فى هذه الظروف عينها يترك
الشبان ذويهم المسنين ليهوتوا ، ويقدم الرجال والنساء على
احتساء بولهم وبول أطفالهم . انه الماء ! انه شيء يربطون
به افواههم الجافة وشفاهم المشقة التى انتشرت على
حوافها اطارات من الملح بيضاء ، مع ارتقاء الشمس فى كبد
السما .

وذات مرة ، عندما جلس انطون وامين ليستريحا قليلا فى
الظل الهزيل الذى تلقيه خميلة من أشجار الزيتون انتظارا
للحاق ببقية افراد الأسرة بهما ، قال الغلام الأعمى « أمين »
لرفيقه :

— توجد صهاريج رومانية فى هذه البقاع . وفى بعض
الاحيان توجد بها بقية من الماء . فإذا جئت الى مجموعة
من الصخور فعليك أن تنقب بينها . فحينما كنت متمتعا بنور
هينى كان من عادتى ان اذهب مع ابى الى البرية لثرى قطعان
الساعز ، وكنا نجد مثل تلك الآبار فيما بين (الد) و (تعلين) .
وتوجد أيضا اشجار الخروب . وقرون الخروب حلوة لذيدة

الطعم ! الا تحبها ؟ ! .. الا صيرا يا سيدى ، فحين نصل الى الوادى سيكون المسير اسهل بكثير علينا لاننا نستطيع ان نسير فى الوادى على امتداده الى أن نصل الى القرية . كيف حالك الآن يا سيدى ؟

— قدماى تؤلماننى بشكل فظيع . ولست أدري هل فى وسعى ان استمر فى المسير وأنا احمل سترة حلتى ؟

— لماذا لا تلقى بها عن كاهلك ؟ لماذا لا تنبذها ؟

— انها افضل حلة عندى . وان انا القيت بها لن اجد شيئا ارتديه عندما اصل الى (رام الله) . والجو فى رام الله بارد فى الشتاء جدا كما تعلم .

— ان ابناء عمومتك هناك سيمدونك بكل ما ينقصك . ثم منذ الذى يدري هل سنكون هناك فى الشتاء أم لا ؟ ان الجيش العراقى سينضم الى الفيلق العربى لتحرير فلسطين وسيلقى باليهود الى البحر ! ان شاء الله ! فأمّن انطون على كلامه قائلا بلهجة آليّة :
— ان شاء الله .

وكان حشد من الناس يستريح معهما تحت ظلال اشجار الزيتون ، مستلقين أو منبطحين على الأرض الصخرية ، او جالسين وظهورهم الى جذوع الأشجار ، محدقين فى شرود الى الأفق الرتيب الرحب من الأرض الحمراء والحصى الرمادى والشوك الأبيض .. وحدود التلال الصخرية الجرداء التى تتميز بها فلسطين يقف عندها البصر ليجدها طبقات فوق طبقات ينتهى اليها السهل المترامى المتعرج ، كأنه بحر تجمدت أمواجه !

وكان ثمة عدد من الأطفال الباقين على قيد الحياة ، وامرأة عجوز لا تكف عن الاتين فى طلب الماء ، وجماعة من النساء جالسات القرفصاء محجبات الوجوه لا يتكلمن ، ولكن أيديهن

الخشنة تم على حقيقتهن بوضوح فهن ريفيات . . وكانت هناك ايضا امرأة شابة جهالسة وعلى صدرها طفلها الذي مات، تحمق فيه بنظرة خالية من كل تعبير ، وطرحتها البيضاء مسدلة على نصف وجهها .

ما من أحد في الحقيقة كان يلقي باله الى سواه . فكل مشغول بنفسه . وعلى مدى الأفق زرافات من الخلق . ألوف من الناس على مدى النظر . كل واحد منهم يتحرك ببطء وجهه في اتجاه واحد صوب الشرق . ووجوههم الى الأردن .

وأخيرا وصل والدا انطون وسائر افراد آل منصور الى تلك المجموعة من أشجار الزيتون ، وارتموا في الظل الحار . ونظر الصبي بقلق الى امه . وكانت امه اصغر من ابيه بعشرين سنة وأقوى منه بنية بكثير ، ولكن قلقه كله كان بشأنها . فلدیه احساس بأن أباه على رغم سنه وعلة قلبه انسان لا يلحقه الفناء . فبطرس آل منصور من أسرة فلسطينية مرموقة . وابنه يؤمن بأنه رجل عظيم عن جدارة واستحقاق . وعظماء الرجال لا يسقطون على الأرض ولا يموتون . انهم قد يهانون ويذلون ، وتغتصب أملكهم على يد الأعداء ، وقد يطردون الى البرية ، ولكنهم اذا ماتوا بسبب ذلك فمعناه انهم تقبلوا الهزيمة . وأنفتم وكبرياؤهم لا يسمحان لهؤلاء العظماء من الرجال بتقبل الهزيمة !

كان هذا التصور لأبيه العربي يربح اعصاب انطون . اما امة الانجليزية فهو يشعر انه لا ينتظر منها أن تكون حائزة لهذا العنفوان الجسدى وتلك الأريحية المعنوية . ثم انها كانت في حال بالغة السوء عندما غادروا البيت . ولذلك صلة ما بجنود (الهاجاناه) الذين وضعوا ايديهم على ابنة عمه مائنة والخادمة رندا .

الله يجعل تفاصيل المسألة ومنحور الموضوع . ولكنه يعلم

انه كان ثمة صراخ كثير وهياج شديد ، وأن كل من في البيت كانوا سيكون وينتحبون . وعندما غادر الجنديان البيت كان عليهما أن يقاتلا النساء اللواتي تعلقن بهما وخمشنهما بأظافرهن . وفزع أنطون خشية ان يعمد الجنديان الى شهر مسدسيهما والشروع في اطلاق النار . وبدا في لحظة من اللحظات انهما فاعلان ذلك لا محالة !

لقد كان الأمر كله مروعا مزعجا . وعندما سمح للجنديين بالفرار انهارت أمه ، وكانت حالتها في منتهى الإفطاعة . كذلك كانت حالة نادية فظيعة . أما رندا فلم يكن لها هم سوى البكاء .

وشكت أمه من صداع شنيع أصابها بعد انصراف الجنديين . وعلى الرغم من هذا الصداع شرعت في اليوم التالي في السير الى (رام الله) ، فوق ارض لا يحلم بشر فيما عدا الرعاية بأن يطأها بقدميه . وبعد فترة من السير جعلت تمشي بمشفة وهي صامتة ، شأنها في ذلك شأن معظمهم ، ولم تقبل نحوه عندما رآته يصاب بنوبة أخرى من نزيف الأنف .

غير انه لم يحقق عليها بسبب ذلك . فلم يكن في يدها أن تصنع له شيئا . بل لم يكن هناك ما يمكن أن يصنعه أي إنسان لأي إنسان . فكل واحد مشغول بنفسه . وهذا هو الهوان الذي فرضه اليهود عليهم عندما طردوهم الى الطريق ليناضلوا ويتعذبوا كالبهائم في تلك البرية .

وقال في نفسه : انهم يريدون أن يفرضوا علينا العذاب . يريدون أن يذلونا . وفي وسعهم ان يفعلوا ذلك بنا ولكن ليس في وسعهم ان ينفوننا . وظلت هذه الفكرة الأبية تسند روحه المعنوية مدة ، ولكن بعد ذلك حلفت فوقهم الطائرات السوداء الصغيرة ، وهبطت الى ارتفاع منخفض ، فلم يعد ثمة شيء سوى الفزع والرعب والخوف المميت من الموت .

ومع تقدم النهار صار جلياً أن كثيرين من هؤلاء الناس لقوا حتفهم على أفضع صورة . وكلهم من المسنين والأطفال الصغار ومن لا حول لهم ولا طول . وكانت أمه تبدو في حالة فظيعة ، كأنما هي أيضاً معرضة للفناء . . وهاهى امه قد ارتمت بجواره الآن ، ولأول مرة منذ غادروا البيت منحتة ابتسامة يسيرة . وحتى في الليالى الأخيرة الفظيعة عندما قذفت المدينة بقنابل المدافع والطائرات — حينما طبقت عليها الكتائب اليهودية — كانت تتمكن دائماً من الإقترار عن ابتسامة عارضة كي تبقى روحهم المعنوية عالية .

لقد كان الحال عصيباً جداً ، ولكنهم لم يواجهوا ذلك الخوف الشخصي المميت من الموت ، ذلك الخوف الذى حل بهم مع أنباء المذبحة في الجامع الصغير ومع التعرض للهلاك في البرية حين أخذت تلك الطائرات السوداء اللعينة تطير على ارتفاع منخفض بصوتها الغريب المختلف عن كل صوت آخر . وقالت ماريان :

— لا بد أن نكون الآن في منتصف المسافة الى (نعلين) . وقد سمعت بعضهم يقولون انهم يستطيعون أن يروا الوادى بالفعل . اننا عندئذ نستطيع على الأقل أن نعرف اين نحن . فالسير على غير هدى هو الذى ينهك قوانا . ونحن لم نفعل شيئاً سوى السير صوب هدف غامض في مكان لا نعرف أين هو !

وكانت قصيرة القامة ، نحيفة ، داكنة الشعر ، ذات ملامح حسنة وعينين زرقاوين زرقة عجيبة ، ورثها انطون عنها . وكان من الممكن أن يظنها الناس عربية — وكثيراً ما ظنوها — فلم يكن فيها شيء انجليزى مميز ، بل ولا أوربى مميز . وكانت في الأحوال العادية تبدو أصغر سناً من اعمامها التى ناهزت الأربعين . اما الآن فهى تبدو عجوزاً الى درجة تكاد تجعلها

امراة اخرى ، وتحت عينيها ظلال سوداء من اثر الاعياء العقلى والبدنى . وشفتاها مشققتان ينزف منهما الدم . وثوبها الرقيق المصنوع من القطن ، ذلك الثوب الذى كان ناضرا قشيبا عند بداية المسير ، غدا خرقة كثيرة الأضرار مبللة بالعرق . . كان مظهرها اشبه بمظهر امرأة عجورية قضت ليلتها نائمة فى حفرة ، وهى التى كانت فى العادة نموذجا للأناقة والهندام !
وناديه التى جلست بجوارها ، بدت أيضا زرية الثياب ، ومحياتها الشاب الجميل شبيها بوجه فتاة تسير فى نومها .
فهى تحملق فى الفضاء ولا تتكلم !

أما بطرس واخوه فريد فجلسا على مسافة قليلة فوق صخرة صغيرة مساء ، وقد اعتمد بطرس على عصاه ذات المقبض الفضى ، ورأسه الجميل منحرف الى الورااء قليلا وهو ينقب بعينييه فى الأرض الممتدة حتى حافة الأفق عن الوادى الذى يوصل الى جنوبى قرية نعلين حيث ينبغى ان يقضوا الليلة . وحيث يروؤن ظمأهم ان لم يجدوا شيئا يأكلونه .
 لقد ازداد وزنه فى السنوات الأخيرة . بيد انه لم يزل ، فى الثانية والستين من عمره ، رجلا وسيما مهيب النظر ، وفى محياه ما يتم على الفكاهة وعلى الحزن معا ، مع هبة عظيمة .
 أما شقيقه فريد — الأصغر منه بعشر سنوات تقريبا — فيشبهه ، وان كان اقل منه وسامة ومهابة . فيه شىء من الفكاهة ولكن بدون ذلك الأسى الغامض الذى يعتبر عنصرا هاما فى اصفاء ذلك السحر الخاص وتلك الحساسية على الشقيق الأكبر . وكانت ماريان تميل الى شقيق زوجها وتشعر نحوه بالاعزاز ، ولكنها لم تكن حوية أن تتزوج شخصا آخر على الاطلاق سوى بطرس .
 وكانت «ماجدة» زوجة فريد امرأة وسيمة تميل الى البدانة ، وقد جلست على العشب بجوار ناديه تحاول ان ترفه عن

الطفلين اللذين راحا ينتحبان من شدة الظما والاعياء . وكان أكبر الطفلين فتاة صغيرة في الرابعة من عمرها رفدت على الأرض الوعرة وأنشأت تبكي في تعاسة ملحة .

ونظرت ماجدة بيأس صوب سلفتها وقالت لها :
— لست أدري كيف سيمكننا ان نصل بالطفلين الى هناك .
فرفهت ماريان عنها قائلة :

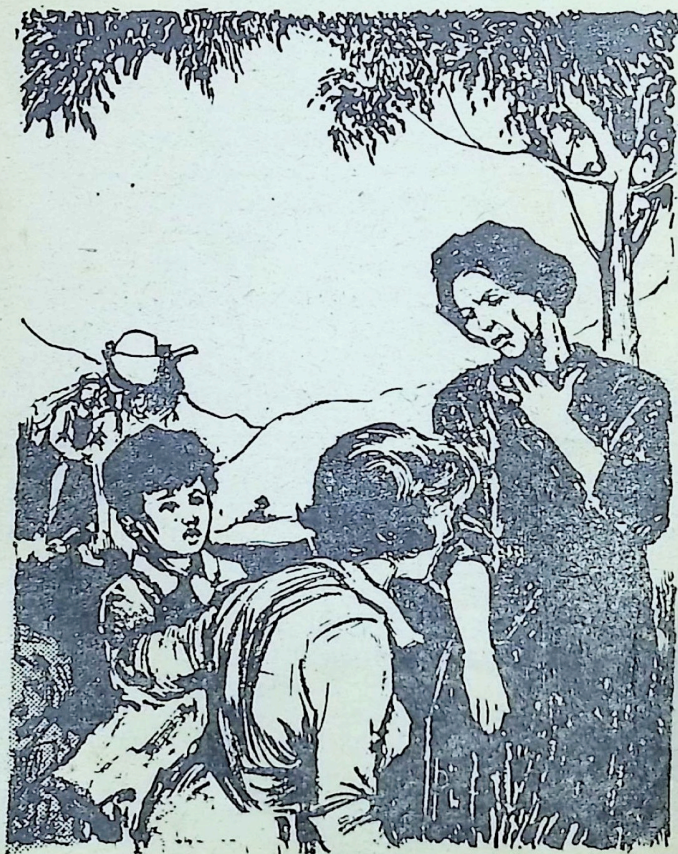
— لم يبق أمامنا الا ساعتان .

وكانت تعلم أن المسافة قد تمتد الى ثلاث ساعات على الأقل . ولكن لفظ ساعتين كان يبدو أقل بكثير من لفظ ثلاث ساعات . وحين تنقضى الساعتان ويكون ثلثا الطريق قد قطعاً فمن الممكن عندئذ أن يجد الانسان القوة على قطع المسافة الباقية . ثم ان حرارة النهار ستكون قد قلت أيضاً ، وذلك من شأنه ان يساعد كثيراً على تخفيف الحالة .
وقال أنطون في امل :

— لعلنا نعثر في طريقنا على صهريج من الصهاريج الرومانية . فأمين يقول ان بعض هذه الصهاريج موجود في هذه الأنحاء ، وقد يكون فيها ماء .

وتساءلت ماريان في لهجة يائسة كيف يمكن لهم ان يستخرجوا الماء من باطن تلك الصهاريج العميقة حتى ان وجدوا صهريجاً منها غير جاف . فالساء الوجود بها لا بد أن يكون على بعد سحيق . . . بيد ان ما في صوت المفلام من اللهفة — وانها للهفة شابة يافعة للغاية — جعل لها لا يطاوعها على تشييط همته ، فقالت :

— علينا اذن أن نفتح عيوننا جيداً لننتسقط مواضعها .
وكان من السهل على المرء أن يرتد آدمى المشاعر وهو جالس هناك تحت أشجار الزيتون ، بعيداً عن عملية الافناء ، وتحقق الروح المعنوية ، وانهاك القوى في ذلك الارتحال



« .. لست آدری کیف سیمکننا ان نصل .. »

الاجبارى ! .. ان الظلم المستعمر لم يزل على حاله ، ولكن وطأته غدت أقل فظاعة بعد ان كف الجسد عن التصيب عرقا وهو يبذل الجهود فى السير المهلك ، واستراحت الاقدام من الاحتكاك الفظيع الذى اصابها بالتهابات وفقايف جعلت من كل خطوة عذابا مقيما لا يمكن احتماله ، ومع هذا فلا بد من احتماله ، لأن ذلك هو المهرب الوحيد من الاستلقاء على الأرض والموت بضربة الشمس والعطش !

وكانت ثمرة راحة أيضا من الفرع ، اذ انقضت عليهم الآن فترة من الزمن لم يروا فيها جنديا اسرائيليا ولا طائرة غادرة من طائراتهم . ولم يعد أحد يطاردهم ليوغلوا فى البرية كما تطارد كلاب الصيد فرائسها . ولكنهم كانوا قد ابعدوا بما فيه الكفاية عن طريقهم بحيث صارت تفصلهم عنه أميال عديدة ، وليس أمامهم الا الاستمرار فى خوض البرية .

ان مجرى الوادى الصخرى سيكون عذابا من نوع جديد لهم عندما يصلون اليه ، فتلهب حجارته الاقدام المتورمة والدائمة ، فليس ذلك الوادى الا مجرى نهر اصابه الجفاف . ولكن له مزية لا يستهان بها ، فهو طريف واضحة المعالم لا يضل من يسير فيها ، وبذلك يتخلصون من الضرب على غير هدى . انهم عندئذ سيعرفون على الأقل انهم بعد ساعة أو ساعتين من المشى لا بد أن يصلوا الى قرية (نعلين) ، وهى القرية التى لم تنزل فى أيدي العرب .

كان كثيرون يأتون ويذهبون ، وبعضهم يستريح فى العراء فى ظل الصخور والحصى الأملس الضخم ، وانه لظل هزيل . فالحركة دائبة لا تنقطع ، والسهل المتماوج مزدحم بالناس كرحام شوارع المدن المأهولة فى أيام المواسم . وانه لحشد من الناس متعدد الألوان حقا ، يبلغ تعدادة عشرات الألوف من الأنفس فى خليط عجيب ، ففيهم الرجال والصبيان معن يرتدون

القمصان البيضاء والبنطلونات ، وفيهم من يرتدون الزي العربى التقليدى والعقال المعروف . وفيهم نساء وفتيات فى زى أوربى حديث الطراز ، ومنهن من ترتدى زيا أسود أشبه بزي الراهبات ، ومنهن من تلبسن الزي الفلسطينى التقليدى الموصوف فى التوراة ، وهو زى طويل ضاف مثقل بالوشى والخزاف ، وعلى ظهورهن تتدلى الطرح البيض التى تغطى رؤوسهن . والمسلمات منهن يرتدين الزي الفضفاض الأسود أو الرمادى وقد عصبن رؤوسهن بالمناديل . اناس من كل لون وصنف ، فيهم القرويون وسكان المدن . فيهم الفقراء واهل اليسار ، فيهم المسلمون والمسيحيون . وما أكثر الأطفال فيهم . ففى كل موضع أطفال يحملهم اهلهم ، او يجرون اقدامهم ممسكين بذيول امهاتهم . وكلهم صفار ، سود الشعر ، سود العيون ، وهؤلاء هم الجيل الصاعد من الفلسطينيين . جيل يشب بلا وطن ، وبلا ديار ، وبلا مستقبل ، وقد كتب على كثيرين منهم ان يشبوا فى مسغبة المعسكرات وتعاستها ، بل ان كثيرين من هؤلاء الصفار الأبرياء كتب عليهم أن يموتوا هاهنا فى البرية !

وكان بعض هؤلاء الناس المتباينى التكوين لهم اقارب فى (رام الله) — كما هو حال آل منصور — وهؤلاء هم المحظوظون ، وهم قلة قليلة . واقلية منهم ايضا من لديهم اموال وممتلكات فى ذلك الجزء من فلسطين الذى أصبح الآن اسرائيل . اما الأغلبية الساحقة فلا يملكون الا الثياب التى يرتدونها وايمانهم بالله الذى لا يغفل ولا ينام . والجميع قد خلفوا وراءهم الاراضى التى كانت عائلاتهم تملكها وتزرعها منذ قرون لا تحصى . فهم جميعا — رجالا ونساء — اناس كادحون ، يتجه كل كفاحهم الآن لمقاومة الفناء تحت هذه الشمس المحرقة فى هذا السهل الذى يجتازونه باقدام متورمة

صاغل أحذية ابلتها الصخور والأشواك !

ان هذه الأرض الموحشة لا يجسر البدو أنفسهم على السير فيها معرضين لضربة الشمس والهلاك عطشا واعياء . ومع هذا يتحرك سوادهم الأعظم متعثرين في كل خطوة يخطونها فينهضون في صمت ويواصلون التقدم في عناء كأنهم تماثيل آلية صماء . . . لأنهم يعلمون أن البديل الوحيد للتقدم إلى الأمام هو الموت المحقق . واردة الحياة تلازمهم إلى آخر نفس من أنفاسهم المكروبة اللاهثة .

- ٣ -

وجال في ذهن المرأة الانجليزية هذا الخاطر :

— لو اننى لم اتزوج هذا الرجل الفلسطينى منذ أربعة عشر عاماً لما كنت الان هاهنا ، فى هذه المحنة !
ولكن الشغلة الصغيرة التى اندلعت من هذه الفكرة لم تلبث ان اضطربت ثم خمدت انفسها تماما امام الفكرة المقابلة لها ، فقالت تحدث نفسها :

— لو لم أتزوجه لعشت فى انجلترا طيلة تلك المدة ، ولكن من الجائز جداً أن القى مصرعى فى احدى الفارات الجوية التى شنّها الألمان !

ونظرت صوب زوجها ، فاذا هو جالس فوق صخرة ملساء متجها بجسمه الى الامام ، وكلتا يديه فوق مقبض عصاه الفضى ، وقميصه الأبيض البلبل بالعرق لاصق بجسده ، وتحت عينيه جيوب ، فبدأ فى تلك الجلسة مسنأ مريضاً . ومع هذا كله لم تنزل عليه سيما ذلك السميت المهيب ، ومخايل ذلك السلطان الذى جعل الناس ينادونه دائماً بقولهم « يا بك » .
وقالت فى نفسها انه قاسى كثيراً جداً . فكيف يمكن أن يعيش ؟ .. فان لم يكتب له أن يعيش فكيف يستطيع انا ان اعيش ؟ ان قوتنا رهن بأيماننا وأحوالنا . كان أبى يقول ان تلك الحكمة رثة ابتذلها الاستعمال ، ولكنها صحيحة صادقة .
فالحلم اجعلها تصدق ايضا ! .. اعطنا القوة كي نستطيع مواصلة السير .. مسافة أخرى قصيرة .. ومدة أخرى أطول مما استطعنا .. ولو تلك الساعات القليلة التى سيستغرقها هذا السير المهلك ! اعط بطرس القوة يارب ! بطرس على

الخصوص يارب ! اما أنا وانطون فسيكون في استطاعتنا ان نتدبر احوالنا .. أما ان لم يستطع بطرس ان يقاوم ويثبت لهذه المحنة ، فلن يكون في بقائنا نحن جدوى يارب .. !
 أما بطرس فلم يوجه كلاما الى زوجته او ابنه . بل ولا حتى لأخيه ، او لآى امرىء آخر ، وهم جالسون تحت ظلال اشجار الزيتون وسط البرية . بل انه لم يحول رأسه لينظر اليهم . ولم يكن هذا عن عدم اكتراث منه بعذابهم أو مدى قدرتهم على مقاومة الفناء المحقق بهم ، بل لأن المأساة الجماعية التى كانت دائرة من حوله ، والتى لم تكن مأساته هو ومأساة أفراد أسرته الا جزءا صغيرا جدا منها ، كانت نكبة انسانية ضخمة ، وكارثة هائلة صبت على شعب برىء .. هائلة جدا الى الحد الذى جعل رثاءه لما يصيبه ويصيب آله الاقربين يتوارى بين طياتها الجهنمية !

ان تشريد الألوف المؤلفة من البشر رجالا ونساء وأطفالا ، والالقاء بهم الى جوف برية التيه ، لم يكن مذبحة أهون شأننا من تلك المذبحة الأخرى التى تمت بنيران المدافع الرشاشة وأسنة الحراب ضد النساء والأطفال فى قرية (دير ياسين) فى اليوم العاشر من ابريل ، ولا هى أهون من حصد ارواح ثلاثمائة رجل فى الجامع الصغير فى (اللد) منذ ثلاثة أيام ..
 فهى مذبحة للعجائز والأطفال الرضع الذين تحملهم أمهاتهم فوق صدورهم ، وللصغار الذين لم يتقنوا بعد الكلام والذين لم تثبت بعد فى الخطو على الأرض اقدامهم الصغيرة .. انها مذبحة الأبرياء !

كان من اليسر عليه أن يستعين بقوة ارادة حديدية للسيطرة على نفسه كى يتحمل ذلك العذاب البدنى . والحق أن عذابه الجسدى كان من الشدة بحيث كان فى كل لحظة على شفاها الانهيار . الا انه كان يأبى بعناد وصلابة ان يموت كما

تنفق الدابة في هذه البرية . من هذه الكبرياء العنيدة استطاع ان يستمد رصيда من القوة يعينه في آخر مرة على الاستمرار في المسير على نحو ما .

أما عذابه الداخلي ، عذابه المعنوي ، فهذا هو العذاب الذي لم يكن لديه أدنى رصيذ من القوة يستعين به على مواجهته .
 فالفظائع التي كتب عليه أن ينبرى لمواجهتها في الساعات الأربع والعشرين الأخيرة كانت أكثر مما يطيق . كانت ثمة تلك الفظائع التي عاناها في المسجد الكبير ، وذلك الظمأ الذي لم يستطع أن ينقع منه غلته لا في الليل ولا في النهار ، وبذاعة أولئك الجنود وهم ينجسون الصهريج ثم يدعونهم ساخرين هازئين للشرب من مائه ، ويحولون بينهم وبين دورات المياه . فلما انجابت سحابة النهار وقلت وطأة الحر لم يجد الرجال المعتقلون بدا من قضاء ضروراتهم الجسدية لصق جدران الفناء الملحق بالمسجد وفي الأركان ، تحت أنظار بعضهم البعض ، فصارت الرائحة الكريهة شيئاً خائفاً للأنفاس . يضاق إلى ذلك ما استولى عليهم طول الوقت من الخوف والفزع والتوجس : فمن يدري ماذا يمكن أن يحدث لهم في أي لحظة من اللحظات على حين غرة ؟ ومن منهم يدري ما الذي يمكن أن يحدث — أو يمكن أن يكون قد حدث فعلاً — لأسرهم أثناء غيابهم ؟ وما معنى هذه الانفجارات المنقطعة التي تنبئ عن إطلاق المدافع الرشاشة ، وان أصواتها لتترامى اليهم من جوف المدينة . . ؟ !

وفي إحدى المرات طالت هذه الانفجارات في خيط متصل . . ولم يعرفوا جلية الأمر عندما اطلق سراحهم في صباح اليوم التالي ، فعرفوا عندئذ أن هذه الطلقات كانت ايذاناً بالمذبحة الرهيبة في الجامع الآخر ، ذلك الجامع الذي كان فريد والآخرين يريدون بالأمس أن يذهبوا اليه ، والحواء في ذلك .

ولقد اوشكوا ان يذهبوا الى هناك فعلا .
يا للصدفة المذهلة ! ويا للرب المصمى ! .. ثم بعد ذلك
صدر اليهم الأمر بالرحيل « والا فلن تساوى حياتكم فلسا
واحدا ! » . انه لن ينسى ما عاش سحنة تلك المرأة المجندة
وهى تطل عليه من نافذة مقعد القيادة فى السيارة — سيارته
هو ! — لتبصق وتنثث ذلك الغل المسموم فيه . لقد عاش
عمره كله يحب النساء ويكرهن ويجلهن ، ويرى فيهن المثل
الكامل للركة والدمائة والحنان . فهن فى نظره مخلوقات تفيض
عطفا ، فهن الزوجات وهن الأمهات . ولكن ها هى امرأة فى
خاتمة المطاف تبصق عليه . . ولم يحدث له مثل ذلك من قبل ،
حتى ولا من المرأة التى تركته . . وبعد ذلك بدأ هذا الارتحال
القاسى فى البرية فى حر الشمس اللافتح ، ونالهيك بشمس
يوليو اثرهية الضارية فى ذلك السهل الساحلى ، وتلك
الطائرات الصغيرة السوداء تنقض عليهم وتطير على ارتفاع
منخفض جدا ، لتزود الناس بالارهاب والفرع فتبعدهم عن
الطريق ليوغلوا فى البرية ، ثم تطاردهم هناك ليزدادوا فى
البرية ايغالا حتى يصلوا الى الجبال .

ذعر وفرع . والغاء للقومات البشرية الغاء متعمدا يفرض
على أولئك البسطاء الأبرياء فرضا . وكأنما لم يكن كافيا
لأولئك الأشرار أن يسلبوهم وطنهم وبيوتهم وارضهم وكل
ممتلكاتهم المادية ، فراحوا يسلبونهم أيضا كرامتهم الانسانية .
بل وما أكثر من سلبوا منهم أرواحهم ذاتها !

وكان بطرس متبها الى المرأة التى كانت جالسة عن كنب
منه تحت اشجار الزيتون وعلى صدرها طفلها الذى مات
عطشا ، مثلما فطن من قبل — اثناء المسير — الى تلك المرأة
الأخرى التى أطلقت صرخة ضارية وهى تلقى بفلذة كبدها حيا
الى قاع حفرة فى تلك البرية المتأججة بحر الهجير ، لأنها لم

تعدد قادرة على حمله خطوة أخرى ، ولم تعد قادرة على الاستمرار في الحياة على المستوى البشرى بعد أن ذهب بعقلها عذاب الظمأ والاعياء ! .. وكان متنبها أيضا الى المسنين من الجنسين الذين نفدت قوتهم قتهاووا على الأرض ، فتركهم بنوهم وذووهم ليموتوا بعد أن يطلقوا القلة الواهية من انفسهم الأخيرة حيث سقطوا ، ومرت بهم الجموع الذاهلة زاحفة نحو هدفها المجهول ، وداسوهم بأقدامهم مثلما كانت عجلات الرومان المتوحشين تدهم المهزمين في ألعاب السيرك على عهد الأباطرة .

اجل ، كان بطرس متنبها للناس من حوله في جمود وعدم مبالاة بالذين يقدمون منهم — رجالا ونساء — على ضم راحات ايديهم ليجمعوا فيها بولهم كي يشربوه شرب البهيم ، بل ويجمعون أيضا في راحاتهم بول سواهم ، يقاتلونهم عليه ليظفروا لانفسهم بقطرة من ذلك السائل الثمين الذي أصبح على دنسه مرادفا للحياة !

وكان متنبها اشد التنبه واعقه لزوجته وهي تطلع في مشيتها بألم واضح في صندلها الممزق من حجارة البزية ، ومتنبها أيضا لما كان مرتسما بجلاء من امارات التعاسة على محياها . ولكن ما من شيء يستطيعه لها رغم كل ما يكنه لها من الحب والرعاية والاعزاز . وكان هذا الاحساس بالعجز عنصرا من اقصى عناصر عذابه الداخلي .

وكان متنبها كذلك لمسير ابنه الشاق المتثاقل وقد اطبق يده على يد الغلام الأعرج ، وخيل اليه ان تلك الالهة الخيرة هي الشيء الوحيد الصالح الطيب في كل هذا الجحيم الذي يتلظى بالسنة سعير من الحر ، والعذاب ، والظمأ ، وفقدان الاحساس بالفير ، لأن كل امرئ كان مشغولا بذات نفسه عن كل من عداه ، منصرفا للنضال في سبيل البقاء في هذه الحياة .

ان ابنه انطون يستحق وحده على الأقل ان يبقى حيا مهما جرى الهلاك على غيره ممن حوله !

وارهقه القلق على ابنه وقد بلغ من التفكير في امره هذا المبلغ ، واستمد من ذلك زادا من القوة فنهض ، واستأنفوا مسيرهم . وفي هذه المرة اتت ماريان ومشت بجانبه . وقالت له وهى تحاول بث الهمه في نفسه :

— سنصل بعد قليل الى الوادى ان شاء الله .

واستقرت نظرتة عليها برهة ، وقال لها بالانجليزية :

— سأتمكن من المقاومة الى ان نصل . لا تقلقى على .

كيف حالك أنت ؟

— انا بخير .

وبعد بضع دقائق تخلفت عنه لتحمل احد طفلى نادية . ولكنها بعد ذلك تعثرت كمن اصابها العمى من شدة الاجهاد ، لان حمل الطفل كان اقوى من احتمالها ، فكادت تصاب بالاغماء ، لولا ان شخصا ما اخذ منها الطفل وهى مقمضة العينين .

وكان هذا الشخص فريد . . الذى قال لها يشجعها :

— قد يوجد صهريج من صهاريج الرومان تحت هذه المجموعة

من الصخور التى ترينها امامنا هناك .

— من الخير لنا الا نتعلق بالامال الكاذبة .

فلم يعقب على كلامها ، بل حمل الطفل الباكى على كتفيه

وغذ السير ، بينما مشت ماريان مع النسوة الاخريات . .

وقالت ماجدة :

— اذا لم نجد ماء عندما نصل الى هذه الصخور فانى ميتة

لا محالة ! لم يعد فى وسعنى ان اواصل السير وانا ظمأى .

آه ! بحق السماء !

ورفعت احدى يديها واطمت الطفل الآخر المتعلق بها على

صفحة وجهه ثم دفعتة عنها بعيدا فى غلظة ، فسلط الطفل

على الأرض باكيا . وصاحت ماجدة بضراوة :

— لم يعد في استطاعتي الاستمرار في حمله !

ثم انفجرت تبكى بكاء هستيريا وهى تقول :

— انا انتهيت ! لا أستطيع السير !

فحملت ماريان الطفل الباكي وحاولت ان تسرى عنه ، ثم قالت لماجدة :

— سنصل الى الماء بعد قليل . لقد انتهى اسوأ جانب من

الطريق الآن . تشجسى . تشجسى !

وحملت الطفل على ظهرها ومشى الجميع قدما . . مشى

الحشد الهائل المتدافع ببطء ومشقة ، ووجوههم جميعا صوب

الشرق . .

وعندما وصلت جماعه آل منصور الى الصخور كان جمع

كبير جدا من الناس قد ازدحموا حولها من قبلهم . وشق انطون

والغلام الأعمى طريقهما بين المتزاحمين وراحا يناوران ويداوران

باصرار الى ان نفذا الى المقدمة من تلك الصفوف المتراسة .

وكانت الصخور فوق نشز من الأرض مرتفع بعض الشيء وفيما

بينها بئر كان الرومان قد احتفروها . وهى بئر غائرة اذا

نظرت في جوفها ألفت لمعات الماء في القاع . وكان الناس قد

عقدوا مناديلهم وجزازات من ثيابهم بعضها ببعض وادلوا بها

في جوف البئر ، وكانوا بعد ذلك يخرجونها وقد تلوثت بالطين ،

الا انه طين بليل . فكانت العائلات تتقاسم قطع القماش

الندية فيما بينها وتمتصه . والطلب على هذه المناديل الموحنة

شديد جدا . .

وكانت النساء يستخدمن الطرح التى يغطين بها رعوسهن ،

فتشاور الصبيان فيما بينهما وانتهى رأيهما الى انهما حتى في

حالة تعاونهما معا لن يستطيعا صنع حبل يصل طوله الى

مستوى الماء البعيد الفور . ولكن اذا اقدمت جميع نساء

جماعتهما على تمزيق جزازات من ثيابهن فسيكون في وسعهما ربط هذه الجزازات بعضها ببعض ليصنعا منها حبلا يفى طوله بالفرض المنشود !

وعندما عادا الى بقية الجماعة كانت رندا تحمل الطفل ، أما ماريان فكانت لم تزل مشغولة بماجدة التي لم تفارقها حالتها الهستيرية . وقال انطون :

— في البئر ماء . . ماء مختلط بالطين الى درجة كبيرة جدا . والناس يدلون بحبال من مناديلهم وجزازات ثيابهم فتخرج سوداء من الطين ولكنها ندية بالماء . ويقبل الناس على مصها . فصرخت ماجدة :

— ومن ذا الذى يريد ان يمص الطين ؟ انى افضل على هذا ألف مرة ان اشرب ماء تبولى !

وكانت ماريان قد وصلت من الاعياء والهبوط الى مدى لا مزيد عليه ، فأحسست فجأة انها لم تعد تطيق اكثر مما اطاعت ، واذا بها تلطم ماجدة على صفحة وجهها ، فترنحت وسقطت على الأرض ، ثم جلست تبكى بهدوء وقد ثقلت عليها تعاستها ، غير انها برئت من الهستيريا . وارتمت ماريان بجوارها وراحت تمزق هذب ثوبها . ولما فرغت منه شرعت تعمل التمزيق في هذب ثوب نادية ، وانطون يعاونها في ذلك .

ولبت الغلام الاعمى معهن ، في حين مضى انطون الى الصخور ومعه ذلك الحبل المصنوع من جزازات الثياب . واستغرق غيابه بعض الوقت ، ولما عاد ألفى ابيه وعمه قد لحقا بالجماعة ، وقسم الحبل قسمين ، فحظيت النساء بقسم منه رحن يعصصن ماءه ، وحظى الرجال بالقسم الآخر . وجعل الجميع من فرط

سروورهم بقرطيب حلو ففهم وشفافهم الجافة بذلك البلال المبارك
لا يفتنون الى طعم الطين المهجوج .

ولم يكن قرب الصخور ظل على الاطلاق ، فلم يمكثوا في ذلك
الموضع طويلا ، وسرعان ما اقتربوا من التلال القاحلة
الصحراوية ثم دخلوا خورا عريضا قريب الغور . . وكان هذا
هو الوادي المنشود ، وقد بلغوه في النهاية . . غير مصدقين !

— ٤ —

وبدا الوادى جحيما من العذاب لا يقل عن جحيم البرية نفسها ، والصخور فيه تملأ القاع ، حتى ان بعض الناس فضلوا السير على الجانبين شاقين طريقهم بين الحجارة وكتل الصفا . ولكن هذا لا ينتقص من مزية الوادى باعتباره طريقا واضحة المعالم ، فهو من هذه الناحية ليس اقل شأنا من خطوط السكك الحديدية التى يتبعها الناس فى الفيافي كى لا يضلوا . . وسرعان ما التأم شمل الجموع الحاشده شيئا فشيئا فى ذلك الوادى ، وتفرقوا جماعات تسير تباعا كأنهم موكب مظهرة هائل يمتد مسافة بعيدة لا يكاد يدرك آخرها الطرف .

وفى هذا الموسم كانت قد بدأت ثمار التين الشوكى فى الظهور ، وتفتحت ازهار فى مجمرعات من نبات الدفل قرمزية اللون خفتت من رتابة التربة الحمراء والحصى الرمادى الذى يكسو البرية . ثم فجأة تراءت للناس اشجار صغيرة متناثرة ، لونها بين الرمادى والأخضر ، هى اشجار الخروب الصغيرة الضامرة . ولكن قرونها الطويلة البنية اللون التى كانت تتدلى من اغصانها اثلجت الصدور التى كاد يقضى على اصحابها الجوع والظما . واشتدت قبضة يد انطون على يد الغلام الأعمى . وصاح :

— اشجار الخروب . هيا بنا !

— أين هى ؟ فوق الوادى ؟

— اجل . وقريبة منه جدا . وهام الناس يتقاطرون صوبها

متراحمين كأنهم جيوش النمل !

— اذهب انت ودعنى . سيكون ذلك اسهل عليك من غيرى .

سأنتظرک هنا .

وجلس امين على الأرض القرفصاء تأهباً للانتظار .
 اما انطون فحين وجد نفسه قد تخفف من جر ثقل الفلام
 الأعمى ، صعد جانب الوادى وأسرع يعدو تلك الiardات
 القلائل صوب اقرب شجرة خروب . وكان بضعة رجال وغلمان
 قد تسلفوها بالفعل . ولكنه تعلق بأقرب غصن به قرون مدلاة
 وقطع عددا منها . ولكن شاباً كان جاثماً فوق غصن اعلى منه
 ركله بقدمه وانتهره غاضباً وسبه ، طالباً اليه ان يبحث لنفسه
 عن شجرة أخرى . . غير ان انطون لم يبال بالركل وظل
 متشبثاً بغصنيمته وراح يجمع مزيداً من قرون الخروب الثمينة
 ويحشو بها جيوب بنطالونه وداخل قميصه اللبل بالعرق .
 وعندئذ صوب الشاب الجاثم من فوقه ركلة شديدة الى وجهه
 بكل وحشية فأرغمه على النزول .

وكان الظما قد قلل احساس الناس بالجوع . ولكن الأيام
 الأخيرة التى تخللها الضرب بالقبائل كانت أيام مجاعة لم يظفر
 فيها معظم الناس بما يتلفون به . . والذين حظوا بفنجان
 صغير من القهوة التركية ، وبضع زيتونات فى ساعة مبكرة من
 هذا الصباح يعتبرون بلا شك من الأقلية المحظوظة !
 وكان انطون جاثماً جداً ، وادرك ان امين جائع ايضا . ثم
 من يدرى هل سيجد كل هؤلاء شيئاً يأكلونه عندما يصلون
 فى آخر المطاف الى (نعلين) أم لا ؟ . . وحين عاد الى بطن
 الوادى الفى امين فى انتظاره حيث كان قد تركه ، ولكن نويه
 ومن يلوذون بهم كانوا قد سبقوهما الآن بمسافة طويلة وغابوا
 عن النظر . وأخذ انطون يعطى امين القرن بعد القرن
 من قرون الخروب وهما يشقان طريقهما قدما ويمضيان
 الفصوص الصلبة ، الحلوة المذاق ، التى تشبه فى طعمها
 وقوامها التمر الجاف ، ويحسان لذلك بحرارة تسرى فى جسديهما
 اليافعين . ولم يلبث انطون بعد قليل ان كف عن الأكل كى

يبقى ما معه لبقية افراد الجماعة عندما يلحقان بهم . واحس
الأعمى ان صاحبه امتنع عن مضغ الخروب فادرك ما دار
بنفسه ولم يطلب من صاحبه مزيدا .

وكانت الشمس قد جنت الآن الى الغروب . ومع انهما
كانا يتصببان عرقا وهما يتعثران على طول السكة الصخرية ،
الا ان الحر لم يعد يعنف بهما بمثل الشدة الوحشية السابقة .
وكان الأطفال من حولهما مستمرين في البكاء والنحيب بصورة
تثير الحسرة والاشفاق . أما المسنون فما زالوا يتوقفون كلما
ساروا بضع ياردات ليستجمعوا انفاسهم اللاهثة . ولكن
أحدا منهم لم يعد يتهالك فيخر على الأرض كما حدث في وقدة
الهجير . . فمن خارت قواهم سقطوا في البرية وانتهى أمرهم
منذ ساعات . أما الذين لم تزل تحملهم اقدامهم في بطن الوادى
أو على جانبيه فكل الدلائل تنبئ عن وصولهم بعد قليل
الى (رام الله) !

* * *

و (نعلين) قرية صغيرة جدا مقامة على مدرجات جانب التل،
فوق الوادى المتصل بوادى (اللد) ، ويحف بالقرية الطريق
العام . اما جانب الوادى من خارجها ففيه نبع صخرى يستقى
منه أهل القرية ويسقون دوابهم وماشيئهم . وعن كثر منه
بضعة من اشجار التين . اما حيث تنحدر الأرض الى مستوى
الوادى تحت مدرجات التل فثمة مصاطب عريضة زرعت فيها
خمائل من اشجار الزيتون .

.. وعلى هذه المحلة الصغيرة تدفق مائة الف تقريبا من
الجياح العطاش المنهكين الذين أصابهم مس من الخبال لفرط
ما قاسوه من مشقات الحر والظما ، وقد غص بهم الشارع
الأوحد في القرية فانقلب اشبه بنهر تسرى فيه موجة عريضة
زاحفة متصاعدة كموجات المد ، قوامها اجساد بشرية يقطر

منها العرق . وفي نهاية ذلك الشارع — في اعالي المدينة — وقفت تلك الحشود كأنها الجدار الصلب المتراس البنيان حول ينبوع الصخرى ، بحيث لم يجد المتأخرون موضعاً لأقدامهم او فسحة من الأمل في الوصول الى ذلك الهدف المنعش . وقال انطون :

— قد تمضى ساعات قبل ان نقرب من هذا ينبوع . فهيا بنا يا امين ندور حول نطاق القرية كي نصل الى طرفها الآخر ، عسى ان نجد هناك قلباً رحيماً نطرق بابه فيقدم الينا كوب ماء بارد ولقمة نتبلغ بها .

وراحا يشقان طريقهما بين الحواري والأزقة الضيقة ، ثم بين الأسيجة النباتية وصفوف نبات التين الشوكي . وصادفتها في الطريق جماعة صغيرة من الكلاب الهزيلة الضالة والقطط التي تتسقط فضلات الطعام من الطرقات . وفيما عدا هذا لم يجدا علامة من علامات الحياة . فقد نمت الى غلم اهالي القرية نبأ سقوط (اللد) ففروا هاربين على طول الطريق الى (رام الله) .

وكانت ثمة حوانيت قليلة مفتوحة . ولكن اصحابها تركوها مفتوحة قبل هجرتهم لأنهم لم يجدوا مبرراً لإغلاقها بعد ان حملوا معهم كل ما كان فيها من ثقتى صنوف السلع . وفي وسط هذا التيه من الأزقة والمنعطفات وصل الغلامان الى مخبز صغير معتم لا يكاد يزيد حجمه على حجم كهف من كهوف الجبال . وكانت رائحة انضاج الخبز تتصاعد من داخله . فهل ترى بقي الخباز بمفرده وتخلف عن الهجرة من تلك القرية المقفرة ؟

واطل انطون برأسه يخترق بنظراته العتمة التي بالداخل ، فرأى وهج التنور الأحمر ، وقد وضعت فوق سطح التنور من الخارج كومة صغيرة من أرغفة مبططة مستديرة من نوع

الخبز الذى يأكله الفلاحون . ورفع انطون عقيرته بالنداء ، وانتظر ان يسمع ردا ، ولكنه لم يسمع شيئا ، فهل رحل الذباب الى غير رجعة ام انه بارح مخبزه بصفة مؤقتة ؟
أيا كان الجواب فان انطون لم يكلف نفسه عناء التفكير فيه طويلا وقد ألقى امامه الخبز الطازج الساخن ، فتناول منه واكل واعطى صاحبه فأكل ايضا . وبعد ان شبع غادرا الخبز ، وقال انطون لصاحبه الأعمى وهما يخرجان الى الزقاق الضيق :

— المهم الآن أن نعود ونعثر على الآخرين .

وفى طريق هبوطهما كانا يتحركان ببطء فوق الحصباء الخشنة ، رعاية لحالة أمين ، فالتقيا بجماعة صغيرة من الناس اقبلت نحوهما ثم تجاوزتهما . وكان أفرادها يحملون حزما ولفائف مما يتم على جلائهم عن القرية . وانتاب انطون شعور اليم مفاجيء بالاثم اذ خطر له ان يكون صاحب الخبز احد هؤلاء الرجال . . وان يكون الخبز الذى التهم منه بضعة أرغفة كان معدا لزاد هؤلاء الناس فى سفرهم . وامتدت يده لتحسس الأرغفة القليلة التى دسها فى قميصه ليقدمها لأفراد أسرته . ومع اعتقاده بأن ظنه صحيح فى الغالب الا ان ذلك لم يدفعه للتفكير فى رد الأرغفة . وكان أمين قد خبا عددا آخر منها فى قميصه مع شيء من قرون الخروب . وفزع انطون عندما رأى احد هؤلاء الرجال يقف ويتحدث اليه ويسأله من أى البلاد هما . فقال له انطون : « من (اللد) . لقد اتيت انا وصاحبى الى هنا لعلنا نجد احدا يتعطف علينا فيعطينا شيئا من الماء نروى به ظمأنا . ولكننا لم نجد أحدا ! »
فقال له الرجل : « معظم الأهالى رحلوا عن القرية هذا الصباح عندما وصلت اليهم الانبياء . ولكن أسرتى قررت المجازفة بالبقاء حتى المساء على أن نسير الى (رام الله)

في الليل لأن الطرق كانت مزدحمة بالوف المهاجرين بالنهار » .
 وغمغم امين قائلا : « ان شاء الله » . واستطرد الرجل
 يقول بمرح : « سنعود جميعا بعد بضعة أيام . عندما يتحرك
 الجيش العراقي لنجدتنا » .

ومرة اخرى قال الغلامان : « ان شاء الله » .
 واسرع الرجل بعد ذلك كي يلحق بمرافقيه الذين لم ينتظروه .
 والتفت الى الغلامين قائلا : « مع السلامة » .
 فقال الغلامان : « مع السلامة » .

**وشعرا بالارتياح لانصراف الرجل ، وقد زاد اعتقادهما بأنه
 هو الشخص الذي سرقا ما كان قد أعده من الأرزفة لزاد
 أسرته ! ..** وقال امين وهما يتعثران هابطين الأزقة المنحدرة :
 « حتى ان حرر الجيش العراقي فلسطين فلن نعود بعد بضعة
 أيام كما يقول هذا الرجل . بل سيستغرق الأمر وقتا اطول
 من ذلك . ثم لعلنا في النهاية لا نعود اطلاقا ! »

ولم يعلق انطون على كلام امين . فقد كان اليهود منظمين
 تنظيما فائقا على حد ما سمعه من حديث أبيه عنهم . أما
 العرب فلم يكونوا منظمين على الاطلاق .

ان كل ما يفكر فيه الآن — أو بعبارة ادق كل ما يسمعه
 الآن ان يفكر فيه — هو العثور على والديه ، ثم الوصول بعد
 ذلك الى النبع . ثم ان يده التي كانت قابضة مدى ساعات
 طويلة على يد امين ، تؤلمه الآن ، وهو يشعر انها لن تنبسط
 عن آخرها كما كانت من قبل .

وعندما عاد الغلامان الى الشارع الكبير ، وجدا ان الجمع
 الحاشد لم يزل يشدد الضغط حول النبع ، ولكن مؤخرة ذلك
 الجمع كانت قد تخلخلت بعض الشيء لأن الكثيرين أدركوا عقم
 محاولة وصول الجميع في وقت واحد الى مصدر الماء ،
 ففترقوا وجلسوا او اضطجعوا تحت اشجار الزيتون او على

أفاريذ الشوارع مسندين ظهورهم الى جدران البيوت على الجانبين ، قانعين بالانتظار ، شاكرين لله على الأقل انهم لم يعودوا مضطرين للضرب على غير هدى في هجير البرية المستعر ، بأقدامهم المتورمة بين الحصى والشوك . فهم الآن في الأردن . في ارض عربية . في ذلك الجزء من الأردن الذي كان يوما ما يسمى فلسطين ، شأنه في ذلك تماما شأن الأرض التي الى الغرب فيما بين ساحل البحر وصفوف التلال القاحلة .

جلس الناس يحملقون في التلال . وكانت الشمس الغاربة قد صبغت صفحة الأفق من فوقهم باللون القرمزى . ومن وراء الأصيل راحوا يحملقون في ظلام المستقبل الذى لم يتشكل بعد . وكان نفر متهم سيكون من الاعياء والقنوط . وفريق آخر كبير العدد جلس يحدق في جمود ، هو بداية الجمود المعهود في اللاجئين على نطاق واسع ، حيث لا يعرفون لانفسهم مصيرا !

وراح انطون والفلام الأعمى يشقان طريقهما نحو المقدمة بوصة بوصة . وبعد جهد جهيد وصلا في نهايه الأمر الى الماء ، فراحا يغترفان منه في راحتيهما ويضربان به وجهيهما ويهتصانه امتصاصا ليرطبا حلقيهما الجافين ، باصوات عالية كأصوات البهائم عندما تشرب . . والناس من ورائهما ومن حولهما يدفعونهما طول الوقت ويجذبونهما الى الوراء .

وكانت الظلمة قد بدأت تخيم عندما غادرا النبع . وشرع انطون يشعر بالقلق على مصير والديه ، وعثر على مكان لأمين تحت اشجار الزيتون تركه فيه ثم انطلق يبحث منتقلا من شجرة الى شجرة ، متعثرا بين الحين والحين بالأجساد المستلقية على الأرض ، متلقيا اللعنات من أصحابها . واخذ يددق النظر في كل جماعة من الناس . ومنهم من كان يحسب

« انطون » متسولا فينتهره كما لو كان كلبا ضالا !
واستولى عليه فجأة فزع شديد من ان والديه ربما لم يصلا
بعد الى (نعلين) . ومن يدري ؟ لعل اياه قد خارت قواه ،
وامه الآن جالسة بجواره في مكان ما من الوادي . او لعل
الأسرة كلها لم تزل متخبطة في البرية . ما كان ينبغي له
أن يجرى بهذا الطيش نحو اشجار الخروب . وان شجرة
الخروب لشجرة لعينة منذ القدم ، اذ يقال ان الأرواح النجسة
تطوف حولها وتسكن قرونها . ولذعته في جلد صدره الدافئ
تلك القرون الصلبة الحادة وتلك الأرغفة المستديرة المسروقة .

وشرع الفتى المسكين ينتحب وقد نفدت حيلته ، وهو
يتخبط على طول خمائل الزيتون ، شاقا طريقه في العتمة بين
الأجساد المقعقة والمستلقية ، منتقلا من جماعة الى جماعة ،
وقد بدأت شجاعته تتخلى عنه مع ازدياد شدة الاعياء
وطوفان القلق والجزع .

وعندما قبضت على كتفه فجأة يد قوية ، صرخ في زعر وقد
اعتقد ان شخصا شريرا سيلقى به على الأرض وهو يصب
عليه اللعنة والسباب ! ... واذا به يفاجأ على الأثر بصوت
مألوف يصيح به :

— الى أين تظن انك ذاهب هكذا ؟ لقد لبثنا ساعات طويلة
نبحث عنك في كل مكان !

.. وفي خضم موجة طاغية من الارتياح والسرور رفع عينيه
ليملأهما من وجه عمه فريد . ثم هتف وهو يلهث :
— أوه !

وتعلق بيد عمه ، ولم يستطع أن يزيد على ذلك كلمة واحدة ،
لأن انفه بدأ ينزف دما مرة أخرى .

وكان الليل دافئاً هادئاً ساكن الريح ، لا تسمع فيه الا أصوات الجنادب التي لا تنقطع . واصوات ذلك العدد الكبير من الناس الذين يغطون في نومهم الثقيل غطيظا مسموعا لأن الاعياء غلبهم على امرهم . وبين كل مسافة واخرى كنت تسمع نفرا قليلا من الساهرين يتحدثون بأصوات خفيضة . اما الأطفال فما أكثر ما ارتفع بكأؤهم في جوف تلك الليلة .

وفي بعض الأحيان كان يسمع من المعراء في خارج القرية ومن جوف البرية عواء فظيع قصير يرسله ابن آوى . فتجيبه الكلاب من كل صوب بعواصف هادرة من التباح .

أما النائمون فكان منهم من استغرقوا في الكرى وكانهم لن يهبوا من سباتهم . ومنهم من راحوا يتقلبون كأنهم ينامون على جمر الغضى . ومن حول هؤلاء وهؤلاء أناس اسلمهم الارهاق الى الارق ، لأن عبء الهم أثقل على نفوسهم من تعب السير الشاق ، فهم يحدقون في أجساد النائمين عن كثب منهم فوق مدارج جانب التل ، متطلعين في صبر نافذ الى بزوغ الفجر من الأفق الشرقي .

ونامت « ماريان » . رقدت مستلقية على ظهرها فوق الأرض الصخرية وقد أنهك التعب قواها تمام الانهك . ونامت « ماجدة » في استغراق الى جوارها وقد تكور الطفلان الى جانبيها . أما نادية فرقدت ساهرة تبكى وتتوجع وتتوجس . واستراح بطرس مستندا بظهره الى شجرة عتيقة عجرا وقد استولى عليه شعور بأنه لن يعرف للنوم مذاقا بعد الآن . وجلس الطون بجواره وهو يخشى أن يستلقى على الأرض حتى لا ينتلبه التزيق الأنفى مرة اخرى . وكان فريد قد حاول أن يظل يقظا كي يؤنس وحشة أخيه ، ولكن النوم غلبه في النهاية على امره فاستغرق في التعاس وهو جالس . وتحلق بطرس في الخطوط الخارجية القائمة للتلال البعيدة ،

وقال بصوت مرتفع وان لم يوجه حديثه الى احد على وجه التخصيص :

— لم يستطيعوا أن يقتلونا . لم يقتلوا منا الا الطاعنين في السن فقط والصفار جدا . لقد اخرجونا الى البريه لنموت كالكلاب ولكننا لم نمت . اننا لم نزل هنا . معظمنا على الأقل ! ولكننا اصبحنا شعبا بلا وطن !

فقال انطون : « لعل الجيش العراقي سيسارع الى تحرير وطننا فيتسنى لنا عندئذ أن نعود اليه » .

ونظر بطرس الى التآلق الشاحب الذى بدا في محيا ولده الجالس بجواره ، ثم قال برقة : «ربما . ان شاء الله» .
ثم استطرد بعد برهة : « استلق يا بنى وحاول ان تنام . فان علينا ان نشرع في السير مرة اخرى بمجرد بزوغ النهار» .
فاستلقى انطون بجوار ابيه ، فسحق جسده شيئا من نبات الزعتر البرى كان على الارض التى يرقد فوقها ، ففاح منه عطر . وأحس كأنه لم يزل قابضا بيده على يد امين ، وكأنه يحس بضغط يدي امين المتشابكتين ، يكاد يحس به فوق عظام كتفه !

وقال بالانجليزية في لهجة تفيض سعادة :

— انتصرنا !
.. وبعد ان اطلق زفرة استرخاء صغيرة ، استغرق في

النوم .

وكان اليوم التالى اقل فظاعة من اليوم الاول ، مع ان اليوم كان حارا .. ذلك ان اللاجئين لم يسيروا في يومهم هذا في السهل المنخفض ، ثم انهم يتقدمون فوق طريق ممهدة ..
أجل انها طريق متربة كثيرة الريح ولا نهاية لها ، الا انها تاريق على كل حال . وقد جنبت الاقدام المتورمة المهراة

عذاب شق طريق لها بين الأحجار والصخور . يضاف الى هذا تخففهم الآن من الخوف وقد صاروا في أرض يسيطر عليها العرب . أما كم من الوقت ستبقى هذه الأرض في أيدي العرب فهي مسألة تخمين ، ولكن ليست في الجو طائرات يهودية ولا على الأرض ما يدل على اقتراب كتائب يهودية . وكان مفهوما أن الفيلق العربي موجود في (رام الله) .

وكان الناس قد بدأوا يتوجهون الى النبع الصخري قبل ان ينبلج النهار . وما ان اشرقت الشمس فوق الأفق حتى كان الزحام حول النبع كثيفا . وقرر الكثيرون ومنهم آل منصور ان من المستحسن عدم تضييع الوقت في محاولة الوصول الى الماء ، بل الأفضل ان يشرعوا في قطع المسافة قبل ان تشتد حرارة النهار .

وسرعان ما تضخم الجمع الحاشد فوق الطريق حتى صار موكبا هائلا . . وبعد مسيرة نحو ساعة ونصف شوهدت سيارتان مقبلتين من جهة (رام الله) ، فتفرس بطرس بنظرة حادة وقد ضيق ما بين اجفانه ، ثم قال لزوجته ماريان التي تسير الى جواره :

— قد تكون احدهما لنا . فلا بد ان « خليل » بلغته انباء (اللد) في الليلة الماضية . . فان كان البنزين متوفرا لديه فلا بد ان يكون قد ارسل سيارته لتأتي بنا .

وتراجع الناس على جانبي الطريق عندما اقتربت السيارتان ، وكانت احدهما « بويك » سوداء كبيرة والأخرى « شيفروليه » كستنائية اللون . واخذت السيارتان تشقان طريقهما ببطء بين الجموع . ومضى بعض الوقت قبل أن تصلا الى جماعة آل منصور . وعندئذ صاح بطرس :

— أحمد ! سائق خليل !
وكان فريد قد عرفه أيضا في اللحظة نفسها فصاح مثل

أخيه بسرور بالغ .. ووقف السائق ، وتكدست ماريان وماجدة ونادية في المقعد الخلفي ، وجلس بطرس وفريد في المقعد الأمامي بجوار السائق ، بينما تعلق انطون بالمؤخرة .. وصاحت ماريان تأمر السائق : « بسرعة ! والا فان الغوغاء سيحاولون الركوب معنا ! » .

وصاح انطون محتجا : « لا مكان لأمين ؟ ! »
 وكان لم يزل قابضا على يد الغلام الأعمى فوق كتفه .
 وقالت ماجدة بحزم : « أمين يجب ان ينضم الى بقية الخدم ..
 فاننا ان أخذناه معنا فلا بد ان نأخذهم جميعا ! »
 فقال لها انطون : « ولكننا لا نعرف اين الآخرون » .
 وكانت ماجدة قد تكلمت بالعربية ، فقال أمين بسرعة :
 « لا بأس . ان كل انسان هنا وجهته (رام الله) . وسيقبل
 اى واحد منهم ان يمشى معى » .
 وحاول ان يخلص يده من يد انطون .. غير ان انطون زاد
 بها تشبثا وصاح فى اصرار : « ان أنت مشيت فكذاك سأمشى
 أنا ! » .

وصاحت به ماريان فى ضراوة وقد فطنت الى الوجوه التى
 اخذت بالفعل تتجمع عند نوافذ السيارة : « اركب ! تستطيع
 ان تحشر نفسك بيننا . ويستطيع أمين ان يجلس على أرض
 السيارة تحت اقدامنا » .

وركب الغلامان ، وصفق الباب ، واستأنف السائق السير
 الى الأمام باحثا عن مكان يسمح له بالدوران . وكان عدد من
 الناس قد اخذوا يلوحون بقبضات ايديهم فى اثر السيارة
 « البويك » . اما السيارة « الشيفروليه » فمشت خلفها
 وهى فارغة لأن الذين ارسلت لتأتى بهم كانوا فيما يبدو
 على مسافة ميل او اكثر فى مؤخرة الموكب الذى لا ينتهى .
 ووجه بطرس الى السائق هذا السؤال :

— كيف الحال في (رام الله) ؟
فأجابه السائق قائلا :

— **حال فظيع ! فقد وصل إليها ألوف من اللاجئين في الليلة الماضية ولم يكن في المدينة ما يكفي لأطعامهم . وقد وزع عليهم الخبز من مخازن الفيلق العربي هذا الصباح . جلوب باشا هو الذي امر بذلك فيما يقولون .**
فسأله بطرس : « أهو موجود هناك ؟ »

فأجاب السائق : « لا . انه في القدس . ولكنهم اتصلوا به تليفونيا هناك . وكان الناس يرجعون العساكر بالحجارة بالأمس عندما جاءتنا انباء استيلاء اليهود على (اللد) و (الرملة) » .

وكانت نبرة صوت السائق تدل على الرضى بما فعله الناس بالعساكر . ولكن بطرس لم يعلق . فالمرارة كانت شديدة الى درجة لا يتصورها العقل . لأن كل انسان كان يعتقد أن السيارات المسلحة الثلاث التي ناوشت طليعة الكتائب الاسرائيلية على مشارف مدينة (اللد) كانت طلائع القوة الزاحفة لتخليص المدينة من اليهود . ولكن هذه الآمال لم تتمخض عن شيء ، ولم يظهر من كتائب الفيلق العربي طابور واحد ، فاقترصت المناوشات على مشارف المدينة . أما قوات اليهود فكانت متفوقة في العدة والعدد . فماذا تجدى ثلاث سيارات مسلحة في دفع غائلتهم ؟

كان بطرس يعتقد انه عندما يكتب تاريخ الحرب العربية الاسرائيلية سيذكر فيها أن جنود الفيلق العربي كان من الممكن ان يقاتلوا ببسالة ضد قوات معادية تفوقهم عددا وعدة . وإذا رجم الأهالي المدنيون المستكرون العساكر العرب بالحجارة وحصبوهم بالحصى . لقد فعل المدنيون هذا وهم لا يعرفون شيئا بالبداهة عن المشكلات الحربية . وأحس

بطرس غصه شديدة لأن جرحا جديدا قاسيا قد أصاب الروح
الفاستينية التي اثخنها الجراح من قبل .

ولما تسنى للسيارتين أن تدورا لتعودا صوب (رام الله)
افسحت الحشود الطريق لهما على مضض واستياء .

وقالت ماريان لنفسها في أسي يائس :

— انهم يشعروننا بالاثم لتمتعنا بهذا الامتياز عليهم . ولكن
هكذا كانت حالنا دائما ، وقد قضت اسرتنا عمرها كله
محظوظة منعمة .

وشعرت بارتياح شديد عندما التقوا في الطريق ببضع
سيارات اخرى قادمة من (رام الله) . وان كان اسطول
كامل من السيارات لا يمكن ان يفي الا بنقل حفنة من عشرات
الآلاف من اوائك المنهكين المتورهي الاقدام ، الجائعين
العطاش ، المتصبين عرقا والمنزوفين جهدا ودهوعا ، ممن
كان عليهم ان يواصلوا السير بمشقة وبطء فوق طريق تسفيها
الرياح بمحاصفة من الغبار الكثيف ، وهم يقتربون من نهاية
سيرهم المنكود الى (رام الله) .

— ٥ —

ومن قبل وصول كتلة المهاجرين الرئيسية من (اللد) و (الرملة) كانت مدينة (رام الله) الجبلية الصغيرة مسرحا لمنظر عجيب ، لألوف المشردين الذين لا ديار لهم وهم يتدفقون في شوارعها الرئيسية الضيق باحثين عن الطعام والمأوى .
وتحت كل شجرة زيتون فوق مدارج التل كنت ترى أسرة قد عسكرت هناك . وفي كل حديقة وعلى طول كل جدار أو سياج في شوارع الحي السكنى التى تظللها اشجار الصنوبر كنت ترى خياما بدائية مصنوعة من الخيش القديم وخرق الثياب المهلهلة لتأوى تحتها رجالا ونساء وأطفالا فتمنحهم احساسا وهميا بالملاذ .

وكان الهلال الأحمر المصرى قد نظم بالتعاون مع الشرطة والجيش توزيع الطعام والبطاطين والخيام . بيد أن ذلك « الخروج » الكثيف الواسع النطاق لم يكن متوقعا من قبل وبهذه السرعة ، ولذا لم تكن الاستعدادات قد اتخذت لمواجهة مثل ذلك الطوفان . اذ كان الاعتقاد السائد على نحو ما أن (اللد) ليس من المعقول أن تنسقط في ايدي اليهود . ولذا كانت المؤئل الذى لجأ اليه الناس من المناطق المحيطة بها يلتصمون الأمان من عدوان اليهود ويطشهم . وكان بها حرس قومى قوى . وكل رجل من سكانها قادر على حمل السلاح كانت لديه بندقية . وفي الوقت الذى كانت فيه ضجة المعارك تتصاعد قعقععتها من كل مكان حولها كانت (اللد) نفسها آمنة وادعة ، والناس فيها يؤمنون بأن النجيدات العربية سوف تصل عما قريب فتد الاسرائيليين على أعقابهم الى

البحر . بل وتلقى بهم في لحيته فينتهي امرهم الى غير رجعة .
ولكن وا أسفاه . بدلا من الالتقاء بالاسرائيليين الدخلاء الى
قاع اليم كان الفلسطينيون هم الذين سيقوا سوق الأنعام
صوب الشرق والقي بعشرات الالوف منهم في لجة البرية
الرملية الصخرية ، لجة العطش الذي لا ترويه قطرة ماء
واحدة !

وكانت (رام الله) هي التي تلقت الصدمة الأولى لهذه
الكارثة الانسانية الكبرى ، فترنحت تحت وقع تلك الصدمة ،
بيد انها ثابت الى رشدتها سريعا وشرعت في تنظيم جهودها
للملاقاة هذا الرزء الداهم . واقبلت سيارات النقل التابعة
للجيش من عمان التي تقع على مسافة بعيدة فوق التلال
القاحلة في الضفة الأخرى من وادي الاردن الكبير ، اقبلت
محملة بأكياس الدقيق . وكانت مكبرات الصوت في الشوارع
تقوم بتوجيه الناس الى مراكز التوزيع . وسرعان ما تحولت
مدرسة الأصدقاء الأمريكيين للبنين ببيتانها الكبير الى مستشفى
مؤقت وعيادة لعلاج المرضى والجرحى الذين تمخض عنهم هذا
« الخروج » الفظيع ، ولرعاية الاطفال الكثرين الذين جاء
أمهاتهم الخاض قبل الأوان في تلك المسيرة الرهيبة ، فتعرضت
حياة أولئك الأمهات المنهكات لحمى النفاس بمضاعفاتها
الوبيلة جميعا !

وهاجم الناس خمائل الزيتون والبساتين والكروم للحصول
على أخشاب يشعلون بها نيرانهم . ومن الطبيعي ان اصحابها
تأذوا الا انهم استنجدوا بكرم الضيافة العربى المأثور ليتجددوا
ويقولوا للناس باسمين :
— تفضلوا . الدار داركم !

اذ كيف يمكن لأحد ان يرد هؤلاء الجياع المحرومين المشردين
خائبين ؟ ان أمم العالم قد اصدرت قرارا جائرا باعطاء

وطنهم لليهود ، وها هم اليهود قد وضعوا اياديهم عنوه على ديارهم وأراضيهم . فليكن الله في عون تشردهم وجوعهم . وكل من بيده شيء في (رام الله) كان يبيحه اياهم قائلا : **— تفضلوا !**

وأخذت السيارة الكبيرة البويك السوداء تشق طريقها في الشوارع الرئيسية المكتظ بالناس في المنطقة السكنية الراقية حيث تلقى أشجار الصنوبر ظلالها . وتحت كل شجرة منها معسكر مرتجل لايواء حفنة من اللاجئين بصورة او بأخرى . وكان « خليل داود » قد بعث بهذه السيارة يقودها سائقه الخاص في ساعة مبكرة من هذا الصباح على أمل ان يعثر السائق على أصهاره وهم شقيقا زوجته بطرس وفريد منصور وزوجتيهما وسائر افراد أسرتهما في المرحلة الأخيرة من تلك **المسيرة الطامية .**

وعندما وقفت السيارة أمام بوابات فيلا داود القائمة بمنجاة من الطريق العامة في نهاية حديقة مترامية حافلة بالأشجار المزهرة وبساتين الفاكهة ، أخذ الناس المتناثرون تحت مظلات من الخيش القديم مثبتة في قضبان سياج الحديقة ينظرون اليهم بغيظ وحرد . كانت نظراتهم تقول بأجلى بيان :

— هؤلاء حقاً هم المحظوظون ، لأنهم لقطعوا جزءاً على الأقل من مسيرة الخروج بالسيارة ، ولهم هاهنا بيت وأسرة يأجأون اليهما ...

وخليل داود رجل وسيم طويل ذو بشرة شقراء ، ارستقراطي المظهر ، يتحرى الرسميات في سلوكه حتى ان من لا يعرفونه عن كثب كانوا يعتقدون انه فاتر بارد الطبع ، في حين انه كان في الواقع رجلاً على جانب كبير من كرم الخلق والسخاء والرقّة الفطرية .

وهو من كبار ملاك الأراضي وذو ثروة طائلة . وزوجته « منى » لها محاسن آل منصور وسحرهم . وفيها شيء من سرعة الغضب التي يتصف بها شقيقها الأكبر بطرس . ولما كان خليل مسلماً فقد استاء رؤساء الأسرتين في البداية أعرق الاستياء لعقد ذلك الزواج ، فيما عدا بطرس الذي كان في تلك الفترة زوجاً مهجوراً ، لأن زوجته الأولى التي كان متزوجاً منها في ذلك الوقت كانت قد فرت مع رجل أصغر منه سناً .. وفيما عدا فريد الذي كان ملحداً متمرداً مع أنه متزوج من امرأة متدينة يصل تدينها الى درجة الايمان بالخرافات والخزعبلات ، على طريقة ايمان العجائز .. وقد طرب خليل داود عندما رأى بطرس وقد قارب الخمسين من عمره يصيب شيوخ الأسرة بصدمة عنيفة أخرى عندما تزوج من امرأة انجليزية أصغر منه بعشرين سنة إلا أنها تعتبر من وجهة نظر أولئك الشيوخ المتزمطين عجوزاً ، ثم هي فوق هذا وذاك اجنبية .

وكان انطون يشعر بشيء من الخوف من آل داود ، أى من زوج عمته خليل ذى المظهر المتعالى ، ومن عمته « منى » بابتسامتها ودمائها التي تشوبها فجأة ثورات غضب ، ومن البنات الأربع بنات عمته ، وكانت صفراهن تقاربه في السن ، اما كبراهن ففتاة كبيرة في السادسة عشرة من عمرها ، لها نظارة ذات اطار ، ويوحى مظهرها ولهجتها بأنها تعرف كل شيء في الدنيا ولا تطيق ان تشغل نفسها بأى انسان ليس في مستواها العلمى !

وكانت زوجة بطرس الانجليزية ماريان تميل الى زوج أخت زوجها — خليل — ولكنها ترى « منى » متعبة ، وترى بناتها غير جذابات بصورة واضحة ، رغم ما يتمتع به والدهن من

الطريق الى بئر سبع

جمال الشكل الملاحظ. ومن الممكن ان يظنهن الناس انجليزيات — فيما تعتقد — بسبب لون بشرتهن الأشقر ، وأسلوبهن غير المبالى ، وعدم لباقتهن في التصرف امام الناس !

أما بطرس فكان يحب اخته « منى » ويغفر لها ما ينتابها من هياج وغضب ، لأنه يعرف فيها النسخة الأنثوية من ذاته . ولم يكلف نفسه عناء محاولة فهم خليل ، الا انه كان يتحرى احترامه ، لثرائه الطائل وارشقراطيته ، فهو من المؤمنين بما للعائلات العريقة من مكانة مرعية . ولا سيما ان هذا الثرى الارشقراطى زوج اخته .

وأقبلت « منى » تجرى بأسلوبها المندفع لترحب بهم ، ومن ورائها أقبل خليل فى اناته وتصلب قامته وهيبته وجلاله ، الا أن ذلك لم يمنعه من تقبيل صهره فوق الخدين ، ومن تقبيل يدى المراتين ، ومن تربيت خدى انطون باعزاز تربيتا هينا . وتعالى من الجانبين صيحات الترحيب والتأهيل والتأسى والاستفسارات ، ثم سار الجميع فى موكب صغير تحت « برجولا » تعرض فوقها أعواد نبات « الجهنمية » صوب الفيلا البيضاء المكلة بالنباتات المتسلقة الخضراء ذات الأوراق التى تشبه أوراق الكرم .

وارتقوا جميعا الدرجات الرخامية البيضاء الى شرفة واسعة تناثرت فوقها المناضد والمقاعد فى تنسيق بديع ، وألقى آل منصور بأجسادهم على تلك المقاعد ، وجىء اليهم بالمشروبات الثلجة . وأخذت إحدى الخادمت طفلى نادية لتمضى بهما الى مكان آخر ، وأرادت ان تأخذ معها أمين أيضا ، ولكن انطون أصر على بقاءه معهم ، وقال فى تبريد ذلك الإصرار : —

فسالته عمته منى : « وأين أسرته ؟ »
فبادرت ماريان قائلة بسرعة :



« .. واقبلت « منى » تجري بأسلوبها المندفع لترحب بهم .. »

— سيصلون فيما بعد . وهم يعلمون أين نحن . فهم في خدمتنا . دعيه مع انطون الآن ، فقد سارا معا متلازمين طول الطريق .

وعندئذ وضع خليل داود يده على ذراع الغلام الأعمى وقال له بحنان واضح :

— مرحبا بك . أنت هنا في دارك .

فقالت ماريان :

— نحن جميعا في حاجة الى الاستحمام .

ثم انفجرت تبكى بدموع غزيرة فجأة وبلا سبب .

ولم يغم نوما عميقا من بين جميع نزلاء بيت داود في تلك الليلة سوى بطرس وحده الذى أنهكت قواه تلك المسيرة الشاقة وسهره طول الليل في العراء في الليلة الماضية على مدارج التل في مشارف قرية (نعلين) . وبلغ من عمق نومه أن غطيته العميق الرنان نفذ الى سمع ماريان التى رقدت مؤرقة العينين في الحجرة المتصلة بحجرتها ، فزاد ذلك من توتر أعصابها .

اما نادية فرقدت مع طفليها في حجرة اخرى ، وراحت تتساءل طول الليل متى عساهم يفرجون عن « نصرى » الذى احتجزه الاسرائيليون ، ومتى عساه يصل الى (رام الله) . وهل تراه في ثورة العار والفضيحة حريا ان يقتلها عندما يعلم ما وقع لها ، أم ان الأخرى بها ان تقتل نفسها قبل عودته حتى لا تواجهه بمثلتها ؟ !

وكانت هذه الأفكار تنتابها طول الليل وتتخللها ومضات من الرجاء تتخيل فيها أن عودة نصرى قد تأخرت الى ان يقدم لها مرور الزمن الدليل الحاسم على انها لا تحمل في أحشائها ثمرة ذلك الفعل القبيح الذى وقعت جريسته عليها ، وأن

نصرى لا حاجة به الى ان يعلم شيئا عن تلك المصيبة برمتها .
بيد ان الخوف كان يلقي ظلاله القاتمة دائما على تلك
الومضات من الرجاء . وقد حاولت أمها وحاولت ماريان ان
ترفها عنها قائلتين انه اذا تبين انها حامل فان نصرى وأباها
حريان ان يذهبا معا الى طبيب فلسطينى فيخبراه بما حدث
ويطلبان اليه أن يجهضها . وما من طبيب فلسطينى يسعه في
هذه الحالة ان يرفض هذا الطلب الانسانى والوطنى في هذه
الظروف .

ولما أغلقت عينيها تراءت لها مرة أخرى صورة وجه ذلك
اللبنانى الأمريكى اليهودى الشاب وهو يضحك مزهوا
بانتصاره الوضع عليها ، فجعلت تقلب رأسها فوق الوسادة
من هذا الجانب الى ذاك الجانب وهى تتن من عذاب نفسى
مستعر .

وفى الحجرة الملاصقة لحجرتها رقد والداه . وهما أيضا
لم يغمض لهما جفن طول الليل . لأن ماجدة أقضت بالثبات
الفاجع الى فريد بعد أن أويا الى حجرتها .
وقالت ماجدة تستحث زوجها على السكوت عما اصاب
ابنتهما :

— ان لم يصل نصرى الى هنا فى وقت قريب جدا فقد
يتضح لناذية أن كل شيء على ما يرام . وفى هذه الحالة
لا حاجة بنصرى الى ان يعرف شيئا عن هذا الموضوع اطلاقا .
فلماذا نسبب له عذابا لا ضرورة له ولا مبرر فى هذه الحالة ؟
وبعد عشرة ايام تقريبا ستكون نادية قد عرفت كل شيء .
فقال فريد بوجوم :

— يحسن اذن أن تصلى لله بحرارة كى لا يعود نصرى
قبل ان تكون نادية متأهبة لاستقباله وقد ثبت أن كل شيء
على ما يرام . ولكن اذا عاد قبل أن نعرف على وجه اليقين

أهـى حامل ام لا فمن الخير فى هذه الحالة ان يقوم خليل
بإبلاغ الأمر إليه !

فقلت له ماجدة بشىء من الدهشة : « وماذا خليل
بالذات ؟ لماذا لا يقوم بإخباره بطرس باعتباره رأس
الأسرة ؟ » .

فأجابها قائلاً : « ان بطرس سيجد هذا الموقف مزعجاً له
ازعاجاً يتجاوز طاقة احتمالـه . أما خليل فهادىء بارد
الأعصاب ، على الصورة التى تنبئى لحام أو طبيب يعالج
الأمر معالجه موضوعيه . فمن الخير أن يتلقى نصرى الخبر
منه . . . » .

ورقدا على ظهريهما فى الفراش الواسع ، وقد مد كل منهما
ذراعيه بمحاذاة جنبيه مسترخيين ، لراحة أقدامهما المتورمة
وقد وجدا فراشا يرقدان عليه بدلا من جانب التل الصخرى
الذى أرقهما فى الليلة السابقة . فالاستلقاء على الظهر صار
فى حد ذاته نعمة . وكانت النعمة حرية أن تكتمل لولا ذلك
القلق الموجع الذى تثيره نادية . نعم لولا هذا القلق لاستطاعا
أن يستغرقا فى النوم بكل سهولة بعد طول الصناء . ولكن
التفكير القائم أبقي عيونهما مفتوحة تحلق فى الظلام . وكان
فريد يغفو بين حين وآخر ، بصورة منقطعة ، أما ماجدة فكانت
كلما هومت للنوم انتبهت مذعورة وهى تخال انها سمعت نادية
تنتحب فى الحجرة المجاورة .

وفى مؤخرة البيت ، فى حجرة تطل من الطابق الأول على
حديقة بها نافورة وأشجار برتقال صغيرة ، استلقى خليل فى
الفراش وقد عقد يديه تحت رأسه ووجهه صوب ضياء القمر
فى الخارج . وكانت أشجار الياسمين تحديق بفروعها اللدنة
بالنافذة وتفعم هواء الليل الدافئ الساكن بعبيرها الفواح ،
وأصوات زيزان الحصاد — تلك الحشرات الصغيرة الشفافة —

فساب في الظلام آتية من بعيد .

وكانت منى جالسة بجواره متكئة على عدد من الوسائد وهي تدخن سيجارة ، ووجهها أيضا صوب النافذة وضياء القمر . وكانا قد تناقشا بالفعل في كارثة نادية مع بقية الأسرة ثم فيما بينهما ، فلم يبق مجال لمزيد من الكلام في هذا الخصوص . لأنه اذا تمخض الموضوع عن أسوأ احتمالاته فلدى خليل صديق حميم من الأطباء الفلسطينيين ، وهو واثق انه سيضع حدا لذلك الحمل السفاح . وخليل أيضا سيتحدث الى نصرى عندما يصل بعد اطلاق سراحه ، ومن المؤكد انه لن يشعر الا بالرتاء لحال زوجته المسكينة .

لقد زلزل كياتهما وانزعجا غاية الانزعاج لذلك الحادث
الوخيم ، ولكن ثمة مسألة أولى بالنظر والبحث عن حل لها .
فالسؤال الآن هو : هل من المنتظر أن يهجم اليهود على
(لطررون) بعد أن احتلوا اللد والرملة ؟

ولطررون تقع عند تقاطع طريقين أحدهما يفضى الى رام الله ، والآخر يفضى الى القدس . ويقال أن قوات من الفيلق العربى لم تنزل فى لطررون . ولكن بدأ يتضح للناس ان قوات العرب تواجه فى كل مكان قوات من العدو تفوقها عددا بكثير .

وسقوط لطررون معناه ان الطريق صارت مفتوحة الى رام الله . ورام الله قد صارت الآن مكتظة الى اقصى حد باللاجئين . فهل سيقع خروج آخر ، وجهته فى هذه المرة مدينة (أريحا) التى تقع على انخفاض ١٢٠٠ قدما تحت مستوى البحر ، والحر فيها لا يتصوره العقل فى شهر يوليه ؟ هل سيكتب عليهم جميعا — آل داود وآل منصور — أن يبادروا بالخروج من البلاد الآن ، منتهزين فرصة خلو الطريق فى الوقت الحاضر ؟

ان بطرس يمتلك بيتا هناك يتسع لهم جميعا . وكانت منى في حالة عصبية سيئة بعد الحكايات المؤلمة التي سمعتها عن الهجرة من اللد ، ثم أن القلق ساورها بخصوص بناتها الأربع . وكان من رأى بطرس انهم ينبغي ان يبادروا الآن بالسير الى أريحا . ففى عزمه ان يتوجه الى هناك مع ماريان وانطون فى الغد اذا وجد أن الجميع قد ظفروا بكفائتهم من الراحة .

واشار خليل اشارة تدل على نفاد الصبر وقال :

— بطرس متقدم فى السن . وقد نالت من أعصابه تلك التجارب التى مر بها . أن اللد والرملة سقطتا فى يد اليهود لأن احدا لم يحاول الدفاع عنهما . أما منطقهم لطرون ففيها قوة كبيرة من الفيلق العربى . وسيكون أمامنا متسع من الوقت للنزول الى أريحا فى حالة سقوط لطرون . وان كنت لا اعتقد انها ستسقط .

واشاح برأسه . وكان ضوء القمر يسقط مباشرة على وسائدهما ، فاستطاعت « منى » أن تراه يبتسم ابتسامته اليسيرة المستهينة ، ثم قال لها :

— لماذا كل هذا القلق ؟ انك تؤكدين انك تؤمنين بالله ، فلماذا لا تثقين به وتكلمين الأمر اليه ؟ ان الله رحيم بالعباد لطيف بهم . اليس كذلك ؟

ومد اليها يده واردف قائلا :

— لماذا لا ننام قليلا ؟

فاطأت سيجارتها ورقدت بجواره ، ثم عابثته ببضع كلمات ووضعت رأسها على كتفه واحاطت جسده بذراعها ، فلم يتكلم ولم يتحرك . . . وسرعان ما استغرقه النعاس . وكانت منى تحسد زوجها خليل على ما يتمتع به من هدوء فى عقله وجسده . وقالت لنفسها :

— نحن آل منصور عصبليون لا يقر لنا قرار . ونعتز بأننا مسيحيون كأنما ذلك حجة ناهضة على مزية خاصة فينا ، مع ان المسألة كلها لا تعدو ان تكون صدفة ناتجة عن الولادة لأبوين مسيحيين . فالأمران في النهاية سيان . وكلنا عرب ، والدين للديان .

ولكن خليل ليس شديد الايمان بالدين . ويؤثر ان يكون ضميره الشخصي هو مرشده والرقيب عليه . ولكنه بحكم تربيته وعاداته عربى مسلم .

واخذ الكرى يداعب اجفان ((منى)) بعد اتفكير قليلا في تلك الخواطر ، وفي العداوة التى ينقم بها اليهود على المسلمين والتصارى على السواء ما داموا عربا . . . ولا استيقظت في الصباح وجدت خليل قد نهض منذ بزوغ النهار كالعادة وغادر الحجرة ، فضغطت على الجرس فأتتها الخادم بالقهوة التركية . وقبل ان تفرغ من تناولها الفت ماريان واقفة بجوار فراشها يبدو عليها الانتعاش وهدوء الأعصاب بصورة مذهلة . وكان ثوبها قد غسل اثناء الليل . وقالت لها ماريان ان بطرس مصر على الهبوط الى اريحا . وانه قد اتصل بالفعل تليفونيا ببيته هناك . وان خليل قد امر السائق احمد ان يقوم بتوصيلهم .

- ٦ -

كان الذهاب من بلد يرتفع فوق مستوى سطح البحر بمقدار الفين من الأقدام الى (اريحا) التى تنخفض عن مستوى سطح البحر بمقدار ١٢٠٠ قدما ، فى حرارة اواسط شهر يوليو ، عملا اعترض عليه الجميع — فيما عدا ماريان — ووصفوه بالجنون ، اذ لماذا يهبط اناس مالكون لقواهم العقلية السليمة من جو التلال العالية المنعش الى جوف ذلك الجحيم الصحراوى ؟ وراحت ماريان ترد على هذه الحجة باصرار قائلة ان نشدان راحة البال ليس عملا جنونيا ، ولا سبيل الى راحة بال بطرس فى (رام الله) التى تقع على الطريق الرئيسية المباشرة من (لطرون) المهددة باحتلال اليهود لها ، هذا فضلا عن اكتظاظ شموارعها باللاجئين . وزادت ماريان على ذلك ان بطرس قد عانى من العذاب ما فيه الكفاية . وايدت قولها هذا بالدموع التى جالت فى عينيها من فرط ما منيت به شخصا من الاعياء العصبى والجسدى . فلئن كانت (اريحا) بجوها القاتل هى ما يصبو اليه كى تطمئن نفسه ، فمن الواجب ان يذهب الى هناك ، ومن الواجب ايضا ان تذهب الى هناك معه زوجته وابنه .

بيد انها كانت تعلم ان ذلك ليس كل ما فى الأمر . اجل ان حالة الانهك التى يعانى منها حقيقة واقعة . وحقيقة واقعة أيضا انه لا يشعر بالأمان فى (رام الله) ، وانه يجفل اشد الاجفال من مجرد احتمال تعرضه لحنة اخرى على يد الاسرائيليين . .

وحقيقة واقعة ثالثة ان جو (رام الله) بكل من تغص بهم من خليط اللاجئين ، بتعاستهم وضياهم ، كل ذلك ثقل الوطأة على اعصابه . . ولكن ما هو اهم من تلك الدوافع كلها رغبته بل حاجته الماسة الى الهرب من لقاء الناس .

لقد امضوا الأسابيع الأخيرة في بيتهم باللد وهم يعيشون ليل نهار محوطين بأناس مروعين جزعين قلقين ، ما بين اقارب واصدقاء وغرباء عنهم تماما جاعوا كلهم يلتمسون المأوى في البيت الكبير ، فعاشوا جميعا في جو الخوف ، ملتصقين بعضهم ببعض ، يسيطر عليهم توتر مستمر .

وكان الاسرائيليون يطبقون على المدينة في فترة الأيام الأخيرة، ولا يفارق اذهان آل منصور الفرع الرهيب مما حدث في (دير ياسين) منذ بضعة اشهر فقط ، حينما اعد اليهود مذبحة شائنة شملت القرية كلها على ايشع صورة ممكنة . وظلت هذه الصورة تلج على مخيلة الناس ، فما حدث على بعد بضعة اميال من القدس ، من الممكن ان يحدث في مينة (اللد) العزلاء ! . . ولقد اوشك العبء العصبي لتلك الأيام الأخيرة في (اللد) ان يتجاوز طاقة الاحتمال البشرى ، والناس موزعون بين الخوف من المذابح وبين القصف المستمر بالقتابل وبين اصوات الطلقات النارية . .

حدث كل هذا والناس في بيتهم متلاصقون ، فلا مجال لاختلاء المرء بنفسه كي يبكي او يصلى او ينفس عن عواطفه بيثها لمن يجب . وهذا الحرمان من الخلوة اشد وطأة على بعض الناس مما هو على بعضهم الآخر . وبطرس ممن كانت هذه الحالة بالنسبة لهم عذابا لا يحتمل .

ومع ان مجموع الناس في دار خليل اقل من اثني عشر شخصا ، وكلهم من خاصة اهل الأسرة الاقربين ، الا ان بطرس كان يحس مع ذلك ان عددهم اكثر مما ينبغى . وان التوتر

أشد مما يطيقه . فلم يسبق قط ان كان الاتصال بينه وبين زوج اخته حميما او مستمرا على هذا النحو ، والفتيات الأربع — بنات اخته — كن يزعجن اعصابه بكثرة ضحكهن الجلجل . أجل . كل انسان وكل شيء كان يزعج اعصاب بطرس ، فيما عدا زوجته وابنه . وكان يريد — بل انه بعبارة ادق كان بحاجة الى — ان ينفرد بهما . وكل ما تسببه حرارة (اريجا) من التنقيص لن يكون شيئا مذكورا في نظره : فأريحا بلد يأمن فيه على نفسه وذويه . وهى ليست غاصصة بضحايا الارهاب اليهودى الغاصب من اللاجئين المشردين . وفى اريحا سوف يكون فى مقدوره ان ينعم بالهدوء والوحدة مع الشخصين الأوحدين اللذين يشعر حقا انهما يعينانه من كل قلبه . كانت ماريان مدركة لهذا كله ، لأن هذا الحل كان يوافق حالتها العصبية المرهقة . وانها لتعلم ان الحر فى اريحا لا بد ان يكون قاسيا جدا ، ولكنهم فى الوقت نفسه سيشعرون بالأمن والطمأنينة ، وستسترخى اعصاب بطرس ، وسينعمون ببركة العزله .

اما انطون فانه شعر بارتياح عندما علم انهم سوف لا يبقون فى (رام الله) . فهو ايضا لم يشعر بالأمان هناك . فهو لم يكن على سجيته قط مع اقاربه من آل داود . ثم ان بيتهم فى اريحا يعتبر بمثابة دار ثانية لهم ، وفى وسع امين ووالديه ان يهبطوا معهم الى اريحا ليكونوا بمثابة خدم لهم ، وبذلك يظل هو وامين متلازمين . وسوف لا تبدأ الدراسة بالنسبة لكليهما قبل اواخر سبتمبر . وحتى ذلك الحين من يدري ماذا سيحدث ؟ ربما يكونون قد عادوا الى موطنهم فى (اللد) ، هم وبقيّة هؤلاء الناس جميعا . . واستقر رأى بطرس على سلوك طريق الوادى الى اريحا ، وهى طريق من الدرجة الثانية ، وعرة ، ضيقة ، صخرية فى

بعض مواضعها . يضاف الى هذا انها كثيرة المنعطفات ، ولذا تستغرق مدة اطول . الا ان الطريق الرئيسية الجيدة تخترق قلب مدينة القدس ، وثمة معارك ناشبة في المدينة القديمة . واليهود يستخدمون في تلك المعارك قذائف المورتار الثقيلة . ومن ثم لم يكن من الممكن لآى شىء في الدنيا ان يغرى بطرس باختراق القدس ، وان كان فريد — الذى قرر البقاء في رام الله — يجادله في ذلك قائلاً ان وجود الفيلق العربى هناك سيكفل لهم حمايه اعظم مما يمكن ان توفره لهم تلك الرحلة في صميم الريف . وكان الطريق الى اريحا لم يزل مفتوحاً ، اما هناك في الوادى فمن الجائز ان يحدث لهم اى شىء !

ورد عليه بطرس قائلاً ان اى شىء يمكن ان يحدث في اى مكان . هذا صحيح ، ولكن الأخبار تتواتر بأن القنابل تصب على مدينة القدس بلا انقطاع ، وان اليهود متربصون في كنيسة «نوتردام» ومعهم المدافع الرشاشة يطلقونها على الناس من نوافذ الكنيسة . وانها لمصيبة ان يفلتوا من الخروج الكبير المهلك في اللد كى تصرعهم المدافع الرشاشة او شظايا القنابل في القدس . اما في الوادى فليس من المنتظر ان يلتقوا بأى انسان سوى اللاجئين من البدو .

وتنبأ لهم خليل بأنهم سيعودون بعد اسبوعين او ثلاثة الى رام الله في طريقهم آيين الى بيتهم في اللد ، وقال بلا مبالاة :

— لاننا سنكون قد القينا باليهود الى البحر .

فافتقر فم بطرس عن ابتهامته الهينة التى يمتزج فيها الأسى بالحزن ، واجابه قائلاً :

— اراك تتحدث كما لو كانت لدينا جيوش قوية تحت تصرفنا! مع انه لم يكن لدينا من القوات ما تبعث به لحماية اللد والرملة! فقال له خليل : « لم يكن لدى الفيلق العربى عدد كافٍ من القوات ، ولكن العراقيين لم يدخلوا هذه المنطقة بعد . »

فأجابه بطرس : « اتمنى على الله ان يصلوا في الوقت المناسب . »

وغضبت منى ، لأن بطرس كان فيما يبدو حريصا على مخالفة خليل في الرأي على الدوام ، وقالت بحدة :

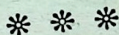
— ان هذه الروح الانهزامية لن تساعد على حل الأمور !
فأجابه اخوها باسم :

— من الخير دائما ان يكون المرء واقعيًا في نظره الى الأمور ..

وصاحت ماريان وهي تحاول يائسة أن تكون على الحياد ، كما ينبغي لضيفة مهذبة :

— ومن أين لأى واحد منا ان يدري ؟ العسكريون وحدهم هم الذى يعلمون مكان القوات ، ومدى استطاعتها !

لقد كان من المجدى حقا لراحة اعصابهم أن يرحلوا بعيدا عن بيت آل داود ، وعن (رام الله) الفاصلة بالخلق عن آخرها .



وبعد الخروج من البلدة درجت الطريق على طول الحافة العليا لخور عميق يقع بين التلال العالية ، فصار في وسعهما أن ينعما بشيء من استرخاء الأعصاب .

وكانت التلال والوادي من تحتها مكسوة بالخضرة ، وفي الوادي مواضع متناثرة من الحقول المزروعة . والأغنام ترعى تباتات يانعة يطلقون عليها البرسيم الحجازى .. وهنا وهناك مربعات أثيقة بها بساتين التفاح والبرتقال ، تجرى بينها جداول الماء النمر . وكان الوادي كأنه يشدو طربا بما فيه من خضرة خصبة ، ولكن هذا الشدو انتهى بانتهاء الوادي .

واخذ الطريق بعد ذلك يتلوى هابطا الى ان انداحت الأرض كلها من حوله وغدت صحراء مترامية تحف بها تلال جرداء منخفضة بنية اللون ، حيث لا ماء ولا زراعة . وبعد أن مروا بمعسكر صغير منعزل من معسكرات البدو كان كأن خيامه المنخفضة مصنوعة من شعر الماعز الأسود تحتضن الرمل ، لم تعد ثمة علامة واحدة من علامات الحياة .

وأحس انطون قرقرة في صماخ اذنه بسبب الانحدار الشديد الذي هبطوه ، فسأل : « هل وصانا الى مستوى سطح البحر ؟ »

فقال له أبوه : « لا . ان الطريق الى اريحا لم تزل طويلة يا بني »

وشعر بطرس ايضا بالضغط الناجم عن الهبوط ، ولكن روحه المعنوية كانت في صعود . وانزل زجاج نافذة السيارة شوطا آخر ، لأن الحرارة كانت قد غدت الآن شديدة الوطأة . وراح يحملق من النافذة في البرية القائضة ذات اللون البني الصفر ، ثم التفت الى ماريان باسمها وقال لها في سعادة :
سم لا أثر هنا للناس . .

قردت على ابتسامته بابتسامة مثلها ، ووضعت يدها برهة فوق يده المتشعبة بمقبض عصاه الفضي وقالت :

— لقد أصبنا بالجبء الى هنا .

فقال لها : « لن يكون الجو هنا أشد حرارة من الجو في (اللد) » .

فأجابته مستدركة : « كل ما هناك ان الهواء سيكون أقل ، لعدم وجود نسيم البحر » .

وعندئذ لاذ كلاهما بالصمت ، وشغلا بالتفكير في الشريط الساحلي الطويل الممتد على البحر الأبيض المتوسط من عكا الى يافا ، وهو الساحل الفلسطيني الذي يبدأ منه السهل

انكبير بكل ما فيه من بساتين البرتقال حتى التلال التى تتوج هامتها القدس .

أما الآن فلم يعد ثمة فلسطين . وهذا الساحل اضحى ساحل قطر جديد اقتطع من الوطن القديم . وهذا القطر الجديد اطلقوا عليه اسم « اسرائيل » . فلا ذهاب بعد اليوم الى الشاطئ فى حر الصيف ان كنت فلسطينيا . فليس أمام الفلسطينيين الا الملح الأجاج فى البحيرة المعروفة باسم « البحر الميت » ، وهو بركة تخلفت عن انحسار البحر عن تلك الأرض منذ زمن سحيق جدا .

وتراءى البحر الميت على البعد وقد استنزفت الحرارة الشديدة كل ما كان له من اللون ، مثلما استنزفت لون السماء . تراءى عبر مشهد من الأرض « سريالى » يحفل بأشكال غريبة منحوتة فى الرمل المتماسك المتصلب . . وانه لمشهد من مشاهد الأحلام ! ها هو هذا البحر الميت جاثما هناك ، ساكنا ، كانه البحيرة المتألقة ، بين جبال (هواب) الداكنة السدرة وبين طيات التلال من الجانب الآخر .

ورنا بطرس الى البحر الميت فى ارتياح ، لأن ظهوره دليل على انهم قد صاروا غير بعيد من أريحا . واريحا هى المكان الذى يتلف على الوصول اليه . أما ماريان فرنت الى ذلك البحر باعزاز ، لانه مقترن فى ذهنها بالرحلة الرومانسية القصيرة من حياتها ، وانها لذكرى اثرية لديها جدا . واما انطون فنظر الى ذلك البحر الميت بسرور ، وهو يفكر فى اقامة المعسكرات على شاطئه مع أمين ، ونزولهما للطفو فوق مياهه الساجية فى الليالى القمرء . ثم انحنى فوق ظهر المقعد ليخبر الغلام الأعمى أين هم الآن ، وصاح بعد ذلك فى حبور : « سنحظى بأوقات هنيئة مريحة ! فالبحر الميت على الأقل ملك لنا لا ينازعنا فيه أحد ؟ »

فقال له أبوه مصححا معلوماته : « بل هذا الجانب منه فقط ، والشاطئ الشرقى على امتداده ايضا » .
 فزجر والد أمين وقال : « ومن ذا الذى تهفو نفسه الى هذا البحر الراكد العفن ؟ كان خيرا لنا لوبقينا فى (رام الله) » .
 فقالت له ماريان من غير أن تلتفت الى الوراء : « هذا دابك دائما يا يوسف ، لا تكف عن الزمجرة . ما من احد أرغمك على الجىء معنا الى اريحا ! »
 ولم تكن ماريان تحب ذلك الرجل اطلاقا ، وكانت تتساءل دائما لماذا يطيقه بطرس ! ؟

وبوقار شديد اجابها يوسف : « انا فى خدمه سيدي ! »
 وابتم بطرس ابتسامة واهنة ، ولكنه لزم الصمت . فهو يبيح ليوسف ان يتذمر ويشكو ، لانه خادم كفاء ، وكل منهما يفهم الآخر . وهو يعلم أن الأمر لو كان بيد ماريان لطردت يوسف منذ وقت طويل ، ولكن ماريان لا تقدر الطهو الجيد كما يقدره زوجها ، ويوسف فضلا عن مهارته فى قيادة السيارات فهو طاه بارع جدا . فلا بد أن يكون سلوك مثل ذلك الخادم الثمين منكرا للغاية كى يقدم على طرده ، ويوسف انسان لم يحدث منه اطلاقا ذنب يعاب عليه يتجاوز الزمجرة والتذمر ..

وجذبت زوجة يوسف الطرحة التى تغطى بها رأسها وللمتها حول وجهها لتناى بنفسها عن هذا التلاحى . وكانت هى ايضا تؤثر البقاء فى (رام الله) ، فاريحا هذه خالية من الحياة . انها ميتة مثل هذا البحر الميت . وكانت حريه أن تبقى هناك فى بيت آل داود مع والديها واطفالها الآخرين الى ان يحين اوان عودتهم جميعا الى (اللد) . ولكن مثلما يدين زوجها بالولاء للسيد ، كذلك هى تدين بالولاء لزوجها . وكان أمين اصغر اولادها الثمانية . ولها عدة احفاد . وكان

الطريق الى بئر سبع

فراقها لأحفادها هؤلاء أشد على نفسها من فراق بنيتها
انفسهم . وامين أحب ابنائها اليها بسبب عاهته ، ولأنه
ايضا مختلف عن الآخرين على نحو غريب ، فهو احد منهم ذكاء
بكثير ، ولذا اهتم به السيد اهتماما خاصا وقرر أن يتلقى تعليمها
وافيا في معهد مخصص للعميان . ثم أن بينه وبين ابن السيد
آصرة اخوة .

ومن امامهم بدأت كتلة التلال في الظهور ، وقد احاطتها
الحرارة بهالة على البعد ، ومن فوقها أبراج كنائس القدس
وكانها اكليل يتوج هامتها . وفي المقدمة تراءى «جبل التجربة»
بقمته المسطحة وسط ارض تنمو بها اشجار السرو العالية .
وفي منتصف الطريق الى قمته تراءى دير الروم الأرثوذكس .
وقالت ماريان بينها وبين نفسها : « ان الرهبان في هذا
الدير لا بد انهم يشعرون الآن بالانتعاش في حجراتهم
المنحوتة في الصخر . . وأما الآذريون (الاقحوان الأصفر)
الذى ينمو بين الأطلال فوق القمة فلا بد انه الآن ذو لون ذهبي
محروق من شدة لفح الشمس » .

وكانت قد صعدت هذا الجبل ذات مرة مع بطرس . فقد
عقد قرانهما في القدس ، ثم ذهبا الى أريحا بناء على رغبتها
لتمضية شهر العسل ، لأنها أرادت أن تمضى اول اسابيع
حياتها الزوجية تحت سقف ذلك البيت الذى اطلق عليه اسم
« دار السلام » . ففي زيارة سابقة لذلك البيت في صحبة
أبيها وقع نظر بطرس عليها لأول مرة ، فابصر فيها ما كانت
عازمة باصرار على أن يتبينه لديها من انها المرأة التى تحبه
وتريد أن تتزوجه . وانها الزوجة التى يستطيع أن يبنى بها
بعد أن قضى سنوات من التيه العاطفى منذ هجرته (سرية)
زوجته الاولى . . ثم هى فوق هذا وذاك ابنة صديقه الانجليزى
الحميم « روبرت ملبنى » .

ولم تكن امها سعيدة بذلك الزواج ، لا لان بطرس منصور رجل فلسطينى ، بل لانه اكبر من ماريان سنا بعشرين عاما ، ولانه مطلق . ولكن ماريان كانت مستعدة وهى فى سن الثلاثين ان تتزوج اباهما ، ذلك انها كانت تحب بطرس منصور لما فيه من صفات تحبها فى ابوها . وكان روبرت ملبى فى ذلك الحين — قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية — ناظر مدرسة للعميان من جميع الأديان فى (يافا) . وكانت تشرف على هذه المدرسة جميعه رعاية العميان فى فلسطين ، ومركز هذه الجمعية الرئيسى فى لندن . وكان بطرس — بوصفه من اصحاب الأملاك البارزين فى المنطقة — عضوا فى مجلس الادارة ، وكان يبدى اهتماما دائبا بادارة هذه المدرسة وتمويلها ، فنشأت بين الرجلين — بعد فترة من الميل المتبادل والاحترام — صداقة وطيدة .

وخيل لماريان أن الرجلين على الرغم من الاختلاف الكلى بين نشأتهما يتشابهان فى أمور كثيرة ، أهمها الاتزان النسبى ورقى الشخصية . وكانت ماريان تعمل فى تلك المدرسة مدة خمس سنوات قبل زواجهما ، فشعرت بجاذبية نحو بطرس منصور كان مبعثها فى البداية انه صديق ابوها وشبيه به من وجوه كثيرة ، ولأنها كانت تقدر اتزانه . أما فورات غضبه فكان يغتفرها لديها ما فى طبعه من دفء وسحر ، وفطنتها الى ما يعانیه من وحشة الوحدة ، ذلك انه مسيحى من اتباع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، وعليه ان ينتظر سبع سنين كى يحصل على الطلاق . وكانت هذه الفترة قد انقضت وحصل على الطلاق فعلا قبل التقائهما بوقت قليل . ثم انه لم يرزق من زواجه الأول بأطفال ، فزاد ذلك من وحدته . وقد بدأت العاطفة عند ماريان نوعا من الشفقة عليه وعلى وحدته . ثم لم تلبث فيما بعد أن سرت لتلك الوحدة لأنها اخلت الطريق

امامها كى تستولى عليه بكلية !

وقد تم زواجهما فى سنة ١٩٣٤ ، وعاشا فى بداية حياتهم الزوجية فى مزرعته بيافا بين حدائق البرتقال ، ثم بعد ذلك انتقلا الى (اللد) . وقد ولد ابنهما انطون الذى اُسِيَا على اسم جده لأبيه فى السنة التالية .

وكان بطرس وطنيا متحمسا ونصيرا مكافحا للقوى التى تعمل على حصول فلسطين على استقلاله . وكان صديقا رابوتا ملهى يعطى على آرائه هذه أشد العطف ، الى حد أن رؤساء (البلدى) فى مقر الجمعية بلندن كانوا يعتبرونه متحمسا فى السياسة أكثر مما ينبغى .

وبعد تبادل المراسلات بين لندن ويافا قررت الجمعية استدعاء «ملهى» . وقد زاد عناده الذى لا يلى من حرجهم وضيقتهم به . ولم يحق عليهم لذلك الاجراء بل عذرهم فيه ، ولكنه فى الوقت نفسه لم يكن مستطيعا أن يصنع غير ما صنع ، وهذا هو شعوره الحقيقى نحو المسألة الفلسطينية .

وكانت ماريان تعلم أيضا على نحو ما ان اباها قد سر بمقادرة فلسطين — رغم حبه العميق لها — ذلك ان اكثر من صديق واحد من اصدقائه العرب شنقوا بسبب نشاطهم السياسى ، (وفاقا للسياسة البريطانية فى فلسطين يومئذ) ، مما جعل الموقف فى نظره لا يطاق . وكانت عودته الى انجلترا فى سنة ١٩٣٨ .

وبقيت ماريان بعد ذلك مع زوجها وطفلها فى اللد . ولم تتأثر تأثرا ماديا كبيرا بالحرب العالمية عند اندلاعها ، ولكنها كانت شديدة القلق والتوجس بسبب وجود قاعدة حزبية

انجليزية غير بعيدة من اللد في (صرند) . فكانت طائرات
الاعداء تحلق فوقها ، فتطلق صفارات الانذار بالفخارات
الجوية ويهرع الناس الى المخابى العامة . ولكن آل منصور
وخدمهم كانوا يمكثون في بيتهم معتصمين بلون من الايمان
بالقدر .

وفي الصيف كانوا يتوجهون الى رام الله فيقيمون في بيت
يستأجرونه لذلك الغرض . اما في الشتاء فكانوا يذهبون
احيانا الى اريحا . وذهب انطون الى مدرسة في اللد . وكان
الفروض دائما انه عندما يحين الاوان سيذهب الى مدرسة
الاصدقاء الأمريكية في رام الله ، وهي مشهورة لدى الجميع
بانها خير مدرسة في فلسطين . ولكن عندما جاء ذلك الاوان
كان العام هو ١٩٤٨ .

وربيع سنة ١٩٤٨ هو ربيع النكبة . وقت ذلك في شهر
مايو الحار معركة القدس !

* * *

وكانت بلدة اريحا الصغيرة خالية من العلامات الدالة على
الحرب . فالشارع الرئيسى الضيق الكثير المنحنيات تظله
اشجار صغيرة يجلس تحتها الرجال على كراسى منخفضة
فوق الرصيف ، امام مقاه مفتوحة الأبواب على مصاريعها ،
 واجهزة الراديو يلعلع صوتها من واجهات الدكاكين المفتوحة .
والحمير المحملة فوق طاقتها تسير في تكاسل كالمعتاد .
وعلى أبواب بعض الحوانيت يقف المسنون من الرجال وفي
أيديهم مسابحهم الطويلة يحركونها وهم يتنمون . والنساء
يتخطرن حاملات فوق رؤوسهن جرار المساء ، وصفار الأطفال
متعلقون بأذيالهن .

الطريق الى بئر سبع

ومضت السيارة المويك السوداء ببطء في الشارع الرئيسي لتشق لها طريقا بين الناس والحمير وعربات اليد الصغيرة وعربات الجر والكلاب الضالة ، الى أن وصلت حيث يتشعب الطريق الى حارات ضيقة تمر بين مجموعات من اشجار النخيل ونبات الجهنمية الذي يكسو أسوار الحدائق .

وانعطف الطريق عند احد أركان « جبل التجربة » ثم وقفت السيارة عند بوابة من الحديد المنقوش ، وبرز رجل رث الثياب من جوف خص تكاد تخفيه أوراق الموز الكبيرة ، فحيى وفتح البوابة .. ومرقت السيارة في ممر ممهّد تزدهم على جانبيه أشجار النخيل والسرو والجورينا ، صوب بيت مربع ذي نوافذ بيضاء له شرفة عريضة في طابقه الأول من الجهة المظلة على الجبل . وكانت ثمة غوطة يرتقال على أحد جانبي الممر ، اما الجانب الآخر فحافل بأشجار الورد والأزاهير . وصعدوا سلالم قليلة الارتفاع الى شرفة ذات اعمدة ، بها باب من الزجاج يفضي الى داخل البيت . وكان رجل داكن البشرة حاقى القدمين يرتدى حلة متكسرة من التيل الأبيض ينسق منضدة على تلك الشرفة ، فلما أبصر السيارة اعتدل في وقفته وثبت في مكانه كأنه جندي في حالة انتباه .. فلما برز سيده من السيارة رفع يده بالتحية ، فحياه بطرس وناداه باسمه ، فابتسم وأخذ يرحب بقدوم الأسرة وهو مثهل الأساريير ..

وبعد قليل سال سيده عن الأحوال في الـاك — فقد تراءت اليه اسماعهم حكايات رهيبة — ثم أعد مقاعد مصنوعة من القش لجلوسهم .. وبعد بضع دقائق جاء بأشربة حلوة وثلج وزجاجة ويسكي فوضعها فوق المنضدة بجوارهم .
ها هم آل منصور قد باتوا أخيرا في دارهم .

وكان الجو حارا جدا ، واسرع يوسف فأتى بمروحة وضعها فوق منضدة أخرى بالقرب من الموضع الذي جلسوا قيسه ، فهبّت عليهم منها أنفاس هواء ساخن . ولكن الهواء المتحرك أسهل في التنفس من الهواء الساكن الذي يكاد يزهدق الأنفاس . ووضعوا كلهم أقدامهم المتورمة والمهراة فوق مواطئ خشبية ، وتركوا الاسترخاء المريح يسرى في أطرافهم وأوصالهم .

وكان أنطون مشوقا الى اكتشاف الغابة الصغيرة المتروكة على الفطرة في الحديقة — وهذا دأبه دائما بمجرد وصوله الى هنا — بيد أن قدميه كانتا تسببان له الما شديدا ، فاستلقى في مقعده المصنوع من القش وهو يتسائل في قلق متى سيكون في مقدوره أن يذهب سائرا على قدميه الى البحر الميت .

وبعد قليل خطر له أن يستعير دراجة من دراجات الخدم . ولكن واجهته مشكلة « أمين » . ولم يكن الشوط بعيدا غاية البعد اذا ما سلك المرء طريقا مختصرا عبر الصحراء ، الا أن على المرء في هذا الأوان من السنة أن يحذر من الثعابين والعقارب ذات اللدغات السمومة . وكانت هذه الفكرة في حد ذاتها كافية لاضفاء التشويق الكافي على مشروع الرحلة .

وسال أنطون أباه وقد استولت عليه اللفة فجأة :

— هل نعود الى رام الله عندما يصبح ذلك مأمونا ؟ فقال له أبوه :

— ستذهب الى المدرسة هناك في الخريف اذا غدا كل شيء على ما يرام . أما أمك وأنا فسنمكث هنا . ولم يشأ أن يضيف الى ذلك قوله :

— الى أن تقتضى لنا العودة الى (الله) !

ولكن .. اين جيش التحرير الكبير الذى سيرد اليهود على اعقابهم ويلقى بهم فى لجة اليم ؟ .. ان ما مر به من الحنة جعله لا يؤمن بوجوده فى الوقت الحاضر على الأقل !

وفجأة أيضا عاد انطون يسأل اباه :

— هل فى مقدورنا انا وامين ان نذهب فنقيم معسكرا عندما تتحسن حالة اقدامنا ؟

فاجاب ابوه قائلا :

— ينبغى أن ننتظر الى ان نتبين ماذا يحدث فى (لظرون) وفى القدس . فان استولى اليهود على القدس فلن يفهم شىء عن التدفق صوب الجنوب . علينا اولا ان ننتظر ما ستتخذ من عنه الأيام القلائل المقبلة .

- ٧ -

طال غياب « نصرى دجانى » - زوج نادية - الى مدى لم يكن يتوقعه أحد . . الى ان اطلق سراحه من معسكر الاعتقال مع غيره من الرجال الذين فى سن الخدمة العسكرية بمنطقة اللد والرملة فى وقت واحد تقريبا ، هو أواخر شهر أكتوبر . وفى خلال الأشهر الثلاثة التى انقضت بين الاحاطة بتلك المنطقة وبين اطلاق سراح نصرى ، حدثت أمور كثيرة جدا بعد مسيرة الخروج الكبرى من اللد :

فما ان انقضت ستة أيام على سقوط اللد حتى أوقف الزدى اليهودى عبر السهل السمادى الى (لطرون) . وقد نصح من ايسق هذا الزدى حينئذ قصيبه واحدة الى الفصيلة السبية من السيق العربى ، مستخدمين مدفعا واحدا لا غير ، ركبوه فوق سائق دبى الشرطة .

وكان اليهود قد اعدوا العدة لزحفهم ، ففضلا عن العدد الضخم الذى كتأوه من المشاة على أتم اهبة للهجوم ، كانت هناك خمس سيارات مدرعة ، ومع ذلك قضى المدفع العربى الاوحد على المدرعات الخمس ، ولم تستطع قوات المشاة ان تتقدم خطوة واحدة . .

وفى ساعة متأخرة من بعد ظهر ذلك اليوم المشهود بدأ التطبيق الرسمى للهدنة التى قررها مجلس الأمن ، وهى تلك الهدنة التى عرفت باسم « هدنة اطلاق النار ! ! » سخرية بتلك الانفجارات التى لم تكف عن الصدور بعد اعلان الهدنة

وتطبيقها من جانب القوات الإسرائيلية التي تستخدم المدافع الرشاشة ، ومن جانب المتسللين الاسرائيليين - أفرادا ودوريات وقناصة يتربصون الفرص للندر - حتى فقدت هذه الهدنة حرمتها وانقلب معناها فحق عليها أن ينقلب اسمها ايضا . وتوجه الكونت برنادوت الى القدس للتباحث في الوسائل الكفيلة بتحقيق الفاعلية المطلوبة للهدنة . وفي ذلك الوقت كان الجيش المصري يدافع عن قطاع غزة . أما الجيش العراقي فكان في شمال الأردن .

وما أن حان شهر اغسطس حتى كان اربعون الفاً من اللاجئين قد ضربوا خيامهم تحت اشراف شرطة شرق الأردن على جوانب التلال المحيطة بأريحا بجوار مجرى ماء . وفي شهر سبتمبر اغتيل الكونت برنادوت في القدس بيد الارهابيين اليهود من عصابة (شتيرن) .

وفي اكتوبر كان الاسرائيليون قد حصلوا على اسطول جوى جديد كل الجدة هرب اليهم من تشيكوسلوفاكيا ، فاستخدموا هذه الطائرات الجديدة القوية في ضرب القواعد العسكرية المصرية في منطقة غزة بالقنابل . واخترقت قواتهم البرية الخطوط المصرية فاستولت على (حليقات) من جهة الغرب وعلى (بئر سبع) من جهة الجنوب ، وعلى (بيت حانون) الى الجنوب من حليقات . وحوصرت في (الفالوجا) حامية مصرية يبلغ تعدادها نحو ٢٥٠٠ رجل .

وكان الذي يتولى قيادة احدى فرق المشاة في ذلك القطاع - قطاع غزة - الذي تعرض للاشتباك مع اليهود ، ضابط مصري شاب اسمه جمال عبد الناصر .

وفي ٢٢ اكتوبر ، وهو اليوم التالي لسقوط (بئر سبع) ، وقف اطلاق النار رسميا . وفي تلك الاثناء كانت الكتائب الاسرائيلية تتحرك هابطة من (عرقوش) جنوبى (لطررون)

متجهة صوب (حبرون) جنوبى أريحا . وكذلك وجه الفيلق العربى بعض قواته جنوبا ، وتم انقاذ حبرون على يد الفيلق العربى الذى استطاعت داورية استطلاع مكونة من سبع سيارات مسلحة من قواته ايقاع طابور اسرائيلى مكون من ثلاثين سيارة مسلحة فى كمين نصبته له .
وعلى اثر ذلك اقام الفيلق العربى مراكز دفاعية اسفل قرية (الظهيرية) جنوبى حبرون بقايل ، على الطريق الى

بئر سبع .
وفى ٣١ اكتوبر اذاع مراقبو هيئة الأمم المتحدة ان الاسرائيليين قاموا بمذبحة قتلوا فيها ثلاثين امرأة وطفلا من العرب فى قرية غربى حبرون اسمها (الدوايمة) .

* * *

وكانت نادية هى التى ابلغت نصرى فى النهاية نيا اعتداء ذلك الجندى الاسرائيلى عليها ، وكانت حاملا فى شهرها الثالث وصحتها معتلة جدا . . بل انها كانت ايضا على شفا الانهيار نتيجة للتوتر العصبى الطويل .
وقبل ذلك كان أبوها قد صحبها الى طبيب فحسها وقرر انها حامل ، بيد انه رفض ان يضع حدا لذلك الحمل بغير موافقة الزوج ، اذ ليس من الحق حتما — على حد تعبيره — أن الحمل حدث لها من ذلك اليهودى . وعينا حاولت ان تبين له استحالة أن يرغب نصرى فى استهوار ذلك الحمل الى أن تضم طفلا قد لا يكون من صابه . فمجرد الشك هنا كافى للكراهة والرفض . ولكن الطبيب اصر بعتاد على انه يجب أن يستوثق من الأمر ، من نصرى نفسه !
وصاحت نادية بضراوة :
— ولكن من يدرى متى سيموت ؟

وتوسل اليه فريد :

— نحن لا نجرؤ على الانتظار الى ان يعود . لأن الأوان المناسب ربما يكون قد فات للاقدام على أى عمل عندئذ !
بيد أن الطبيب لم يتزعزع عن رأيه . وبعد مزيد من التفهيم والرجاء ، قال أخيرا :

— لم يزل في الوقت متسع . وإذا لم يعد زوجها في مدى شهر ، أعدكما بأن انظر في الأمر مرة أخرى .
وبعد شهر الا قليلا ، عاد نصرى !

وكان ذلك الطبيب نفسه قد خلص الخادمة « رندا » من حملها ، كما خلص من الحمل فتاتين لاجئتين فلسطينيتين جاء بهما ابواهما . وكانت احدهما قد افتضت بكارتها واغتصبت امام عيني أبيها ! .. ولم يكن هذا الطبيب هو الطبيب الفلسطيني الأوحد الذى تحدى القانون على هذه الصورة في تلك الفترة ، مستريح الضمير ، ليعحو بعض آثار الفضاءات الاسرائيلية الممزقة .

وكانت نادية طيلة ذلك الوقت تعاني من الغثيان باستمرار ، وتتلهى على عودة زوجها ، وان اشفقت جزعا من تلك العودة ! ... ثم فجأة ، وبغير انذار سابق ، عاد نصرى . عاد قدرا اشعث ، رث الثياب ، منهك القوى لانه مشى معظم الطريق من اللد الى رام الله . وكان شاحب اللون هزيلا بسبب ما فقد من وزنه — وكان لا يقل عن عشرين رطلا — وكانت أعصابه غاية في التوتر .

ونصرى دجاني شاب كانت الحياة خفيفة العبء عليه جدا ، الى أن حدثت كارثة تقسيم وطنه . فابوه ثرى كريم متساهل ، وله زوجة جميلة شابة وطفلان ، وهو متعلق بثلاثتهم تعلقا شديدا ، وعاش معهم عيشة طيبة راضية هينة في قصر الأسرة بيافا . ولما بدأ القتال في تلك المنطقة

في شهر مايو هرب بأسرته من يافا الى دار أصهاره آل منصور في اللد .

وكانت هذه الهجرة نهاية شبابه اللاهى غير المكترث . ومع ذلك كان الشاب الذى اعتقله الجنود الاسرائيليون فى منتصف يولييه يتمتع بشيىء من الخفة والمرح فى سلوكه ومظهره . أما نصرى دجاني الذى دخل رام الله اشعث اغبر اعرج فى نهايه أكتوبر ، فكان يبدو اكبر سنا من حقيقته بكثير ، وحول فمه خطوط لم يكن له بها عهد من قبل .

ولكن هذا كله لا يمنع من اعتبار نصرى أحد المخطوطين من حيث انه كان يعرف أين يبحث عن أسرته بعد اجلاء اهالى غزة عنها ، اذ كان المفهوم دائما انهم سيتوجهون الى بيت داود فى رام الله اذا اضطروا لمغادرة (اللد) .

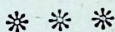
ولم يكن يعذبه فى الحقيقة الا عدم معرفته كم منهم لم تقتله محنة الخروج من اللد الى البرية ، وما الذى حدث لزوجته وطفليه ووالديه وسائر أفراد أسرته . فظل طوال الطريق يهذى بتخيل ما قد يجده فى انتظاره من انباء الفواجع عندما يصل الى رام الله . وكلما وقع نظره على حشود اللاجئين العسكريين فى كل مكان شعر بالدم يغلى فى عروقه لما هم عليه من التعاسة والضياع .

أما الشارع الذى تظله اشجار الدرو ، وهو الذى كان يطلق عليه البعض أحيانا اسم شارع العشاق — لما تلقى ظلال تلك الأشجار من الظلابة على أركانه فى المساء — فهو الآن قد صار بحق شارع اللاجئين ، وكانت موجات من التعاسة البشرية تفيض عنه فترطم ببوابات بيت داود ، بل وتتسرب الى حديقته ذاتها .

وعندما انعطف نصرى الى الشارع ، تحت رعاية الخادمة رندا ، استطاع أن يبصر طفليه يلعبان قرب البيت ، فأطلق

الطريق الى بيت سبع

صيحة ، واقبل الطفلان يجريان ويطلقان صيحات الدهشة
والسرور . أما الفتاة الخادمة فأجفلت وولت الأدبار صاعدة
السلم ، واجتازت البهو مارقة كالسهم الى داخل الدار .
وبعد لحظة عادت مع نادية ، يتبعهما والدا نادية . وفطن
نصرى الى وجود ماجده وفريد ، ولكن عينه لم تبصر حقاً
سوى زوجته وقد ارتدت ثوباً أبيض له حزام احمر ، وهى
تجرى هابطة السلالم صوبه .



وبعد موجة المعانقة والترحيب والاستفسارات والاطمئنان
على أبويه اللذين عرف الآن انهما يقيمان فى دارهما بالقدس ،
توجه نصرى اولا الى الحمام حيث اغتسل وبدل ثيابه . وكان
الحمام قد أعد له على عجل ، وامده خليل بالثياب ، بينما انتحت
حماته ماجدة جاتبا بابنتها نادية ، فى اضطراب شديد — أثناء
وجوده داخل الحمام — وقالت لها :

— عندما يخرج من الحمام سيكون عليك أن تذهبي اليه
فى حجرة النوم . فماذا أنت زمعة ان تفعلنى ؟ ماذا ستقولين
له ؟

فأجابتها نادية :

— الحقيقة طبعاً . فانا لا أشعر الآن ، وقد عاد ، بأدنى
خوف ، لأنه عانى بنفسه تجربة قاسية على يد اليهود ، ولذا
سيفهم الموقف . وأنا واثقة انه سيذهب هوى الى الطبيب .
فقلت لها أمها فى قلق :

— وكيف يمكنه ان يقطع برأى ؟ قد يداخله عندئذ الخوف
من ان يكون فلك الجنين من صلبه ! ؟
فودت عليها نادية بقوة :

— انه لن يترك شيئا للمصادفة . لن يجرؤ على ذلك .
 فهزت امها رأسها بارتياح وقالت :
 — ليس في وسعك أن تجزمي بذلك . فللرجال طبائع
 غريبة . وقد يثيره النبأ فينقلب عليك . ماذا ستفعلن اذن ؟
 فقالت نادية بمرارة :
 — سأنتظر ! ليس هذا ما فرض علينا نحن الفلسطينين
 ان نجيده ؟
 وتنهت ماجدة ، ثم نهضت قائلة لها :

— **كان الله معك . سأصلي من أجلك .**
 وكان هذا الحديث قد دار خارج البيت في الشرفة . ونهضت
 نادية بدورها وتبعته والدتها الى داخل البيت ، فتوجهت
 ماجدة صوب المطبخ ، بينما صعدت نادية الى الطابق الأول .
 ولم يلبث أن خرج نصرى من الحمام مرتديا عباءة حريرية من
 عباءات خليل ، فبدأ في عيني زوجته — بعد أن حلق لحيته —
 أقل شحوبا وهزالا . ومرة اخرى أحست بمبلغ وسامته ،
 فازداد خفقان قلبها وتوجسها .
 وقال لها نصرى يطمئنها باسمها :

— ها قد أصبحت انسانا جديدا .
 ودلفا الى حجرة النوم معا ، وأدار نصرى المفتاح في الباب ،
 ثم اخذها بين ذراعيه وقال لها ببساطة :
 — ما أطول واثمد ما اثنتقت اليك ! لن تصدقني مهما قلت
 لك ! وعندما ابصرتك تهبطين السلم وتجريين على ارض ممر
 الحديقة المبروشة بالحصياء الملونة اتستقبليني ، شعرت انك
 اطلتي واتسهي من أي وقت مضى !
 وتبادلا قبلات عميقة ، وسمعت قلبه يدق دقا عنيفا . ولما
 بلغت القبلة الحارة ختامها المحرق شرع يجذبها برفق صرير

الطريق الى بئر سبع

للفراش ، ولكنها ابتعدت وقد اكفهر لونها اكفهرارا شديدا ،
وفانت به بصوت اجش :

— نصري ! عذري ما أقوله لك . وأنه لرهيب !

وفي هذه المرة كان الخفقان العنيف صادرا عن قلبها هي ..
وحملق فيها منتظرا . ولما لم تتكلم ، سألها وقد اعتراه
الخوف فجأة :

— ما الأخير ؟

فقالت في الم شديد :

— عندما اعتقل جميع الرجال في ذلك اليوم المشئوم ، جاء
جنديان يهوديان الى البيت وطلبا ماء ليشربا . وقالا انهما من
(الهاجاناه) . ونزلت اليهما « رندا » بالساء ، فجرها احدهما
قسرا ..

وتوقفت عن الكلام . وراح ذهنها ينقب عن الألفاظ المناسبة
للتعبير عن بقية المساة . ووقفا برهة ينظر كل منهما الى
الآخر بعشق وفزع ، ثم أشاحت نادية بنظرها عنه كي تجد
في نفسها القدرة على مواصلة الكلام :

— جرهما قسرا الى داخل حجره . وسمعناها تصرخ ،
فأسرعت انا وماريان نهبط السلالم لنجدتها . وعندئذ ..
عندئذ قبض الجندي الآخر على عنوة !
ونظرت اليه مرة أخرى ، في يأس .. وبعد قليل قالت
بصوت مرتجف حاد :

— لقد قاومت وناضات ، ولكنه كان ثابا وكان قوى
البنية جدا .

وفجأة استطردت من غير مناسبة او اتصال بما قالت آنفا :
— انه لبنائى امريكى .

واستمر يحملق فيها من غير ان يتكلم . وفجأة انفجرت
براكينها ، وصرخت فيه قائلة :

— لا تنظر الى هكذا ! لم يكن الذنب ذنبى ! الا تصدقنى ؟
 انا الآن حامل فى الشهر الثالث ، ويكاد الجنون يطبق على من
 فرط القلق والانتزاع ! يجب علينا أن نفعل شيئا لمواجهة
 هذه النكبة . وثمة طبيب مستعد اذا وافقت انت . . . اذا
 ذهبت معى اليه أن . . .

وتنحنت ثم هوت على الفراش وهى تبكى بكاء هستيريا .
 وظل نصيرى واقفا يهتلق فيها . وفجأة شعر ببرودة شديدة
 تسرى فى أوصاله — مع أن اليوم كان حارا — فارتجى وجمع
 عباءة خايل حول جسمه فحدره ذاك التصرف من سباته ، واتجه
 نحو السرير وجلس عليه بجوارها ، ولكنه لم يلمسها .
 وبعد برهة صمت قال لها :

— لقد كان من رأى دائما انه ما من امرأة يمكن ان يفتصبها
 رجل بغير ارادتها . فكيف يمكن لرجل أن ينال وطره من
 امرأة ان هى ثابتة على الرفس والمقاومة ؟ انا شخصا لم
 أفلح فى ذلك ، فلماذا يستطيعه هذا اليهودى ؟
 فرفعت رأسها عن الفراش وحملت فيه مشدوهة وقالت
 له :

— الا تصدقنى ؟ انخطر ببالك اننى من الممكن ان اسام نفسي
 احدهم بمقدم علم هذا الذبح بدمى ارادتى ؟ لقد كانت
 ((نينا)) فى تلك اللحظة ذاتها فى ذلك الوقت . وفى وسعك أن
 تسالما . بن الجرس ! أرسل فى طلبها !
 ولما حدثته لا يحرك ساكنا حاولت ان تتحامل على نفسها
 وتغادر الفراش كي تصل الى زر الجرس بجوار الباب .
 ولكنه امسك بمعصمها وقال لها :

— لا ! انا اصدقك . طبعاً انا مصدق ما قلت ! ولكنه
 شمع رهيب جدا ! زوجتى انا اعتدى على عرضها رجل . . .
 ورجل من حثالة اليهود ! ؟ يا الهى !

ودفن وجهه في راحتيه ، ثم نظر اليها في اشفاق وقال :
 — في تلك الليلة الأخيرة قبل أن يأخذوني . . كان ما تعلمين
 بيننا . فمن الجائز أن يكون هذا الحمل مني .
 فهتفت في حنق :

— ولكننا لا نستطيع أن نعلم . ولا يمكننا ان نقطع برأى
 على وجه اليقين . يجب أن نذهب الى الطبيب يارجل !
 وبسرعة ! أنا الآن في الشهر الثالث !

ومدت يدها فلمست وجهه الشاحب وقالت :

— نصرى ! شدد ما اشتقت اليك ! شدد ما اشتقت الى
 اجتماع شملنا من جديد . .

فتناول يدها تلك وضغطها على صَفْحَة خده وقال :
 — أنا أيضا كنت شديد الشوق اليك . ولعل شوقي اليك
 كان اشد من شوقك أنت الى .

وقبل باطن يدها ، ثم فجأة نهض وقد ثارت مراجله :

— ألم يكفي اليهود ما صنعوه بنا ، ولقد اغتصبوا وطننا
 وديارنا وأراضينا ؟ هل كان لا بد لهم أن يغتصبوا نساءنا
 أيضا ؟ !

واتجه عبر الحجرة الى مائدة الزينة ففتح صندوق سجائر
 استخرج منه سيجارة فأشعلها . ثم قال بعد أن جذب نفسا
 منها :

— وهو كذلك . سنذهب الى الطبيب وسيجهضك . وبعد
 أن اطمن على سلامتك سأتوجه الى عمان وانخرط في ساك
 الفلق العربي . فهم بحاجة هناك الى الرجال . وإذا وانتاني
 احظ سائقا بضعة من اليهود قبل أن ينتهي القتال !
 وبعد لحظة سالها :

— وماذا حدث لرندي ؟

فأجابته نادية :



— لا تنظر الى هكذا ! لم يكن الذئب ذئبي ! الا تصدقني ! ؟

— أجهضها الطبيب . ولكن الشاب الذى كان على وشك الزواج منها يقول الآن انه لا سبيل الى ذلك الزواج بعد ان فقدت بكارتها . فأسرته من الفلاحين المزمعين ، ومن تقاليدهم ان يرقصوا ليلة الزفاف بالمنديل المخبب بدم بكارة العروس على دقات الموسيقى . وحيث انه لا دم هناك لتخضيب المنديل فلا عرس ولا زواج !

فزوى نصرى ما بين حاجبيه وقال :

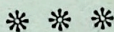
— ان التدليس فى هذه الأمور مستطاع وهيسر . فهناك اكثر من وسيلة لتلطخ منديل العرس بالدم ! فأجابته نادية :

— أعتقد انه زاهد فى الزواج منها الآن . لانه سيتذكر كلما اجتمع بها ذلك اليهودى الذى سبقه اليها فكان اول من عرفها ! وازداد تقطيب نصرى ولم يتكلم . وعاوده الشعور بالبرد وارتجف ، فقال لها :

— الأفضل ان البس الآن ثيابى . فانى اشعر بالبرد بعد الحمام الساخن . ساعدينى على اللبس .

فنهضت نادية عن الفراش وتوجهت الى مائدة الزينة حيث مررت المشط فى شعرها ، ثم قالت بتبلد :

— ينبغي الا تصاب ببرد . ها هى الثياب المعدة لك . وسامضى انا الى المطبخ لأرى ماذا يعدون للغداء ..



وبمجرد ان استطاعت ساجدة الخلفر بابنتها فى خلوه ، بعيدا عن المطبخ المزدحم ، سألت نادية بقلق :

— هل كل شئ على ما يرام ؟

فألت لها نادية بشرود :

— نعم . وسنذهب معا الى الطبيب .

فُسكتت امها برهة ثم سالتها :
 — ولكن من جهة اخرى ، الم يحنقه ذلك عليك ؟ الم يحملك
 وزر ما حدث ؟

فبادرت نادية تقول لها :

— لا . مطلقا !

بل واستطاعت نادية ، زيادة في طمأنينة امها ، ان تحمل
 شفتيها على الافترار عن ابتسامة صغيرة . وعندئذ تمتمت
 ماجدة :

— اشكرك اللهم ! ما اكرمك يارب !

ثم انتفتت الى ابنتها وقالت لها :

— هكذا اقول دائما لأبيك . ولكن اباك يا بى دائما ان
 يصدقنى وان يؤمن برحمه الله !

— ٨ —

أعدت مأدبة خاصة في ذلك المساء احتفالا بعودة نصرى من المعتقل اليهودى . ولم تكن مأدبة فاخرة كمآدب الأيام الخوالى ، لأن النقص فى الأقوات بمدينة رام الله كان شديدا جدا بسبب ضغط اللاجئين وحالة الحرب — برغم توقف العمليات العسكرية — ولكن الحمل المشوى التقليدى قدم صحيحا على المائدة بأكمله ، بما فى ذلك الرأس ، فوق وسادة ضخمة من الأرز المحمر بالمكسرات ..

واتصلت «منى» تليفونيا بدار السلام — فى مدينة اريحا — كى تدعو بطرس وماريان لحضور ذلك الحفل ، ولكن بطرس لم تكن صحته على ما يرام ، فقد عاودته علة قلبه القديمة كما قال لاخته . وركب خليل سيارته الى القدس ليأتى بوالدى نصرى وبقية الأقارب الذين يعيشون فى القدس والأماكن المحيطة بها ، ولم يكن يشارك اصهاره فى تخوفهم من دخول المدينة المقدسة .

وكان رجال الفيلق العربى يعقالمهم الأبيض والأحمر يقفون امام تحصينات اسوار المدينة القديمة التى ترجع الى القرن السادس عشر . وكان من الضرورى ان يتجنب خليل الدخول من بوابة دمشق ، لأن كنيسة النوتردام التى تقع تجاهها — والتى دمرتها الممارك — لم تزل فى ايدى القوات الاسرائيلية التى تسلط المدافع الرشاشة على تلك البوابة من نوافذ الكنيسة . وهى منطقة مشهورة ايضا بكمون القناصة فيها . وأولئك القناصة يشكون السام ، ولذا يسلمون انفسهم بتذكير المدنيين

العرب بأنهم ما زالوا هناك ، بتوجيه القذائف اليهم عندما يعمرون في الرحبة التي امام البوابة ، ضاربين بالهذنة عرض الحائط !

وسلك خليل الطريق المار أمام المتحف الى حى الشيخ جراح شمالا ، ثم أدار راديو السيارة على محطة اسرائيل التي كان يصفى لاذاعتها - فى اهتمام ممزوج بالآلم - بضع مرات فى كل يوم .. واذا صوت رجل ، وان كان صوتا ناعما ، يتكلم العربية الفصحى مملنا ضرورة الاستيلاء على (العقبة) ، الميناء الواقع على الخليج المعروف باسمها عند رأس البحر الأحمر ، وفى الجنوب الأقصى من (النقب) ، وهى المنطقة التي منحها لليهود مشروع التقسيم الذى اقترته هيئة الأمم المتحدة .

وما أن سمع خليل ذلك حتى اغلق الراديو حانقا . فالعقبة آخر متخذ لشرق الأردن على البحر الأحمر بعد أن اغلقت فى وجهها موانئ فلسطين المسلموبة على البحر الأبيض . واستمر خليل فى طريقه بسيارته الى أن وقف على طريق رام الله عند فيلا حديثة مزخرفة يقيم بها والدا نصرى مع نفر من ذوى قرابتهم الأذنين . وكانت الشمس قد جنحت للغروب فى بهاء أخاذ القى اشعته القرمزية المذهبة على القباب والمآذن وابراج الكنائس الضاربة فى سماء القدس ..

* * *

سماء منى من أخيها الأكبر بطرس ان يعتذر من عدم القدوم الى رام الله تلبية لدعوتها ، كما ساءها منه قبل شهور أن يرحل الى أريحا غداة وصوله من اللسد . وكانت واثقة انه رفض الحضور لأنه لا يريد ذلك ، لا بسبب توقع صحته

كما قال . والحق انه لم يحبب « خليل » في أى يوم من الأيام . وهو الآن حائق عليه لانه لم يمسه أذى او خساره من تلك المأساة الوطنية الفلسطينية .

ولم يخفف من حدة غضبها ما اكده لها اخوها فريد أشد التأكيد من ان بطرس تأذت صحته كثيرا جدا منذ تلك المسيرة الوحشية من اللد عبر البرية . وقالت له ردا على ذلك : — من عادة بطرس أن يدعى المرضى او التوعك كلما وجد في ذلك ما يوافق هواه . أن حاله قلبه ليست من السوء كما يدعى ، فقد مكنته من تحمل تلك المسيرة بكل مشاقها ، حيث هلك فيها كثيرون لا يدعون مثل علقته . انه يريد دائما ان يفعل ما يحلو له ، ويأبى ان يفعل ما لا رغبة له فيه !

والواقع انها كانت شديدة الغضب عليه لأنها تحبه أشد الحب ، ولأنه أذى شعورها . . ولكن « فريد » كان على عكسها شديد القلق على صحة اخيه بطرس ، وقرر ان يذهب لزيارته والاطمئنان عليه بمجرد الفراغ من مشكلة نادية والاطمئنان على صحتها ومسيرها . ولعله يتمكن من الذهاب الى هناك في عطلة آخر الأسبوع مع انطون الذى دخل مدرسة الأصدقاء الأمريكية منذ سبتمبر ، ولذا فهو يعيش معهم فى رام الله .

أما نصرى فقد اسعده كثيرا ان يرى ابويه . ولكن فيما عدا ذلك لم يابه كثيرا سواء حضر بطرس منصور او غير بطرس منصور أم لم يحضروا . بل انه فى الظروف الدقيقة التى يجتازها كان يفضل الا تقام حفلة على الاطلاق بمناسبة قدومه .

اجل انه عاد الى اهل بعد غيبة طال امدها وساوره وساورهم فيها القلق ، ولكن رجوعه الى زوجته وطفليه لم يتمخض عن تحقيق حلمه الذى عاش فيه تلك الشهور الثلاثة ، بل الى

نفسه يعيش في دوامة كابوس مروع صبار يقضى الخلاص من
عذابه لينطلق بعيدا مرة أخرى .. بعيدا الى عمان ، حيث
يتدرب في صفوف الفيلق العربي ، ثم ينطلق الى أى مكان
يوجهونه اليه ، بشرط ان يتمكن من مقاتلة العدو .. فيقتل
ويقتل !

وكانت نادية فاتنة جدا بشعرها الفاحم الغزير ووجهها
الشاحب البضاوى وعينيها الواسعتين . كانت جميلة في
عذوبة . ومع ذلك فانه كلما نظر اليها الآن تذكر على الفور
ذلك الجندي اليهودي الشاب وهو يتحسس بدنها البض ،
ويلقى بجسده فوق جسدها ، وينالها ، ويقضى لبائته القذرة
منها . يتذكر هذا فتغلى دماؤه ولا يفكر في شيء سوى
الانطلاق . الانطلاق ليقول ويشفى غليله بسفك دماء السفاحين !
ولكم قال لنفسه انها تعذبت اكثر مما تعذب بتلك التجربة
الرهيبة ، وان من واجبه ان يرحمها ويرثي لها ، وان يمتلىء
قلبه ويفيض حبا لها وحنوا عليها . ولكن سائر هذه المشاعر
كانت قد ماتت لديه ، ولم يعد في مقدوره ان يشعر بشيء اللهم
الا هذه الغيرة الوحشية ، والا الجود الفظيع في جوانحه
وعواطفه الرقيقة .

انه يتمنى الآن ان تنتهى هذه المأدبة ، لان قلبه عاجز عن
المشاركة فيها . ومع هذا فهو مشفق من الليل ، ومن رقاده
هامد الجسد عاجزا عن التجاوب مع زوجته والاقتراب منها ..
وهي الحالة الجميلة الرقيقة المحبة . انها زوجته وحبيبته
وام اولاده . انها تحبه ويحبها ، ولا ذنب لها بل هي مجنى
عليها . ولكنه لا يستطيع ان ينسى انها عرفت رجلا آخر ،
وان هذا الرجل ينتمى الى العدو !
اما انظرون فكان مستثار النفس لراى نصرى مرة اخرى ..
فزوج نادية ابنة عمه شخصية رومانسية بطولية في نظره ..

اليس قد اخذه اليهود الى معسكر للاعتقال وثبت للمحنة
 وخرج حيا منها وعاد اليهم ليقص عليهم قصته ؟ ! .. ثم انه
 يعتزم الرحيل لينضم الى الفيلق العربى ويعاون في القضاء
 اليهود الى البحر ! .. ان انطون لم يزل مؤمنا - شأنه في
 ذلك شأن معظم الفلسطينيين - ان القضاء اليهود الى البحر
 أمر محتوم الوقوع . لقد كان طول حياته يحب نصرى ،
 ونصرى يحبه ايضا . بيد ان نصرى الذى عاد اليوم الى
 رام الله يختلف كثيرا عن نصرى الذى يعرفه . انه لم يعد
 يرسل ضحكاته المرحية او نكاته ومزاحه وتهريجه . بل انه
 لم يعد يبتسم ولا يتكلم الا اذا وجه اليه الكلام أحد .. وعندئذ
 يغمغم ببضع كلمات ثم يسكت . لقد أصبح يبدو اكبر سنا من
 حقيقته بكثير جدا .

واستقر رأى انطون على ان السبب في ذلك ماعناه نصرى
 على يد الاسرائيليين . ولعلمهم عذبه . وسيكون على ما يرام
 عندما يقضى في البيت فترة من الوقت مع نادية والطفلين .
 وبنت عمه نادية ايضا لاحظ عليها اختلافا شديدا منذ جاءوا
 الى رام الله . فهي كذلك لا تضحك ولا تمزح ، بل ولا
 تلاعب الطفلين . انها على قول زوجة عمه ماجدة ليست على
 ما يرام صحيا . وقد تجرى لها جراحة ، وهم ينتظرون عودة
 نصرى كي يذهبوا بها الى الجراح ليشفيها مما بها .
 وفجأة عاد نصرى ، وشرعت عمته وزوجة عمه في العمل
 بنشاط ، توجهان الخادمت والخدم وتصدران اليهم الأوامر ،
 بل انهما اشتهرتا شخصيا في أعمال المطبخ انجازا للوليمة
 الكبرى . وطير التبا السار الى جميع الاقارب والاصدقاء ،
 ودعوا للحفلة . الا ما اشبه ذلك بجو الاحتفال بعيد الميلاد .
 لقد خيب آمال انطون كثيرا ان والديه لم يتمكنوا من الحضور ،
 وانقلب القلق على ابيه الذى لم تكن صحته على ما يرام منذ

غادروا السيد . ولكنه عندما ظال ذلك لمحنته « بني » ايهلته
ممسائلة فيما يشبه الضحية :

— وماذا تتوقع ان يكون حاله وقد اصر على البقاء هناك
في (اريحا) طول الصيف . . ؟

ثم لم تلبث ان اردفت :

— لا بد انهما مجنونان . . كلاهما !

ولكنهما لم يكونا مجنونين — في نظر الصبي الحزون — بل هما
شقيان فقط ، محطما الفؤاد . وعندما يكون هذا حالك فانك
تحب ان تعتكف في دارك . ودار السلام هي دارهما الحقيقية .
فمهما الح زوج عمته خليل على ابيه قائلا : « ان داري هي
دارك ! » ، في كرم عربي اصيل صادق ، فالحقيقة الواقعة
ان هذه الدار هي دار آل داود وليست دار آل منصور .
وبطرس منصور — كما يعلم ابنه تمام العلم — رجل متمود
على الأمر والنهي في داره ، وعلى توجيه خدمه وتصريف شئون
بيته على طريقته الخاصة . ولا سبيل الى ان يشمر الا بانه
« ضيف » فحسب في أي دار غير داره ، ولو كانت هذه
الدار دار زوج شقيقته !

لهذا كله كان انطون يدرك انه من الأيسر والأجدي على
والديه أن يظلا في اريحا رغم انخفاضها الشديد ورغم حرارتها
الرهيبه في فصل الصيف .

أما هو شخصيا فيفضل الإقامة في رام الله في الوقت
الحاضر ، بعد ان تغلب على شعوره بالخوف من هجوم اليهود
عليها ، فهو يحب مدرسة الأصدقاء الأمريكية ويزهيه ما يقال
عنها من انها خير مدرسة في فلسطين بأسرها .

والحق انه سرعان ما اخذ الى الاستقرار في رام الله ،
بيد انه شعر بالوحدة والافتقار الى الأصدقاء منذ رحل امين
ليدخل مدرسة العميان في بيت لحم . وكان بطرس قد رتب له

هذا المسير . وبعد ذلك صفت علاقته ببنيات عمته بمجرد زوال غشاوه الحياء الاولى لدى الطرفين . ولكنه لم يستطع ان يشعر بخزازه الصداقه حتى بلسببه لمن كانت منهن في مثل سنه . اذ لا يسعه ان يذهب مع فتاه لافنامه معسكر في الحلاء او للسباحة ، ولا ان تتسارحه في الاهتمام بلعبه كره القدم . فتصاري الامر بينه وبين بنات خليل داود علاقه تقوم على التسامح المتبادل ، فهن لا يباييهن وهو لا يباييهن . اما هو صرح انصداقه قد محل له فيما بينهم ، فهن دنيا البسات الخاصة بهن ، وما ابعد هذه الدنيا عنه وعن نظيره . وفيما يختص بسائر الامور العملية كان التباعد بينهم تاما على نحو ما جرى به العرف من التفريق بين الجنسين في كنائس فلسطين في ايام الأحد تماما ..

وفي وليمة العشاء جلست الفتيات مع زوجة عمه ماجدة ونفر آخر من الفتيات والنساء الى مائدة صغيرة في حجرة ملحقة بحجرة الطعام ، لانه لم يكن هناك متسع للجميع على المائدة الكبيرة ، وهكذا بدت الوليمة وكأنها قد قسمت قسمه طبيعية الى فريقى الرجال والنساء . وان كان راي خليل — فيما بينه وبين نفسه — ان هذا من تأثير العرف الشرقى العتيق الذى يأبى الا أن يثبت وجوده ..

وجلست نادية بجوار نصرى على المائدة الكبيرة ، وجلست منى و خليل معا في الوسط . وكان انطون سعيدا بجلوسه الى جوار نصرى من أحد جانبيه ، والى جوار عمه فريد من الجانب الآخر ، وعمه هو اقرب الناس واحبهم اليه بعد ابيه . وقال الجميع انها لخسارة أن لم يتمكن بطرس وماريان من الحضور .

وقبل أن يدعى الجميع للجلوس الى المائدتين اقبلت على انطون بنت عمته الكبرى ومعها فتاة تمسك بها من يدها ،

وقالت له :

— هذه هي صديقتي « ثريا » . وهي زميلتي في المدرسة .
 ووالدها هو الدكتور سابا الذى يعرف والدك معرفة وثيقة .
 وكان انطون يعتبر تقديمه الى اى انسان ، ولا سيما من
 الجنس الآخر ، بمثابة محنة له ، بيد انه ارغم نفسه على النظر
 الى الفتاة وغفم بعبارة من العبارات المهذبة المتعارف عليها .
 وبدأت له الفتاة من النوع العادى جدا ، ولا تثير اهتماما خاصا ،
 فيما عدا أن اباه يعرف اباه . وسألها انطون على سبيل
 التأدب :

— هل أتت من (اللد) ؟

فأجابته ثريا قائلة :

— لقد ولدت هناك . ولكن اسرتى انتقلت الى هنا بعد
 ذلك بقليل . وقد حضر والدى ليرى بطرس بك بمجرد أن
 سمعنا بوجودكم هنا ، ولكنكم كنتم قد رحلتم الى اريحا .
 فسألها انطون :

— وهل والدك موجود هنا الليلة ؟

فقال ثريا :

— لا . فهو الآن موجود فى امريكا لحضور مؤتمر طبى .
 وعندئذ قالت له بنت عمته فى افتخار :

— ثريا سوف تدرس الطب .

وضحكت الفتاة فى خجل فبدأت اسنانها الكبيرة غير
 المتناسقة . واحس انطون على الفور أنها اقرب الى القبح .
 وسمعها تقول :

— أتمنى ذلك ، ولكنى لا ادرى هل افلح ام لا ...

فقالت صديقتها فى ولاء وحماسة :

— طبعاً ستفلاحين ! يجب أن تؤمنى بقدرتك وثقتى
 بنفسك . . قل لها هذا يا انطون !

فقال لها انطون هارتباك :

- نعم . هذا صحيح .

وعندئذ أحس ارتياحا كبيرا اذ اعلن ان العشاء قد اعد ، وان على الجميع أن يجلسوا الى المائدة . واثناء تناول الطعام نظرت الفتاة صوب انطون عدة مرات ، ولكنها لم تغلح في التقاء عينيها بعينه !

وقدم خليل لضيوفه شراب العرق ، وشيئا فشيئا حلت عقدة لسان الرجال وانطلقوا في الأحاديث ، ما عدا نصرى الذى لم يشرب من العرق الا مقدارا قليلا جدا وظل صامتا ، وهو الذى كان مجرد وقوع نظره على كأس من العرق كافيا لان تتالق عيناه ويبدو عليه أن مجرد مداعبة رائحة ذلك الشراب لأتفه تبهج قلبه وتثمله !

وشرب الرجال نخبه ، متمنين له استعادة العافية والانشراح ، مرحبين بعودته ، راجين له التوفيق في القتال مع الفيلق العربى ، وان يعود سريعا الى بيته في يافا . وكان في كل مرة يقول لهم : « شكرا » ، ثم ينحنى لهم انحناءة يسيرة ، وهو مجفل بعض الشيء ، كمن كان في سبات ثم لكزه احد فأيقظه فجأة !

واخيرا بلغت الوليمة ختامها . وكانت الوان الطعام الكثيرة موضوعة كلها على المائدة في وقت واحد . وانتقل الجميع على الأثر الى خجرة فسيحة صفت فيها المقاعد والأرائك حول الجدران ، فجلسوا من تلقاء انفسهم في فريقين ، كل جنس في ناحية ، وقدمت القهوة التركية الفواحة بما خالطها من بذور « الحبهان » في فناجين صغيرة ، ووضعت النرجيلات الى جوار من يدخنها من الرجال ، فجعل ماؤها يرسل فقاقيعه في قزقة لطيفة ، ودارت الأحاديث هينة ليئة تتخللها عواصف من الفقهة كلما القى احدهم طرفة او نكتة مستملحة .

ولكن بعد فترة وجيزة كثرت فترات الصمت في تلك الجلسة الساهرة ، لأن وجوم الشاب الذي اجتمعوا لتكريمه والاحتفال بسلامة عودته ، وانصرافه عن سمرهم ودرجهم ، جعلاهم يشعرون بعدم الارتياح !

وكان هؤلاء الرجال لا هم لهم الا التباحث في موضوع واحد يعنيه جميعا في الوقت الحاضر ، ألا وهو الموقف الحربى ، واحتمالات تخلص القوة المصرية المحصورة في الفالوجا منذ اقتحم الاسرائيليون تلك المنطقة ، وما حدث للجيش السورى ، وما كان ينبغي عمله فيما مضى ، وما ينبغي عمله الآن ، وعلى من يقع اللوم ، وما المنتظر حدوثه بعد ذلك ..

- ٩ -

كأن الحديث في جملته هو الحديث المألوف كلما اجتمع فلسطينيان أو ثلاثة معا .. وكانت المناقشات تدور من غير أن يصل المتناقشون الى نتائج ، لسبب بسيط جدا وهو أن لا احد منهم يدرى شيئا على وجه التحقيق عن تلك الأمور جميعا . واتما المسألة كلها لون من ألوان التنفيس يحدث راحة في النفس المكروبة بما يلقي من ظلال اللوم على هذا الفريق أو ذلك . فمن قائل لو فعل العراقيون كذا ، وقائل لو فعل الفيلق العربى كذا ، وقائل لو فعل فاروق كذا .. وعلى هذا النحو مضى مؤتمر هؤلاء الجالسين في المقاعد الوثيرة يذخون الفرجيلة يضع الخطط العسكرية التي لا تعرف الفشل !

وكانوا بين الحين والحين ينظرون الى نصرى — وهو أحدثهم سنا ، فيما عدا انطون — وقد جرب بطريق مباشر الاحتكاك بالعدو ، ثم هو على وشك المضي للاشتراك في مقاتلتهم — (اذا احتاج الأمر مستقبلا لقتال ، أو سمحت بذلك ظروف السياسة الدولية) — ويتوقعون منه أن يدلى برأيه ويشترك في المناقشة . ولكنه كان لا يدلى بشيء لأنه لا يجد لديه ما يقوله ، فيثقل عليهم صمته .. واذا ما نظروا اليه ينتظرون الإلهام والحماسة ، ألفوه صورة مجسمة للتخاذل وضعف الهمة !

وجاءتهم « رندا » بصينية مثقلة باكواب صغيرة بها شاي

يلا لبن ، وانتھز نصرى فرصة انشفال الحاضرين بهذا
اقتراب ووريعه عيهم قصر من الحجرة . وكانت نادية
للمرسل الذين تصبوا لمصربه اجماعه — ممن كانوا عن كتب
مه — ان حافه العصبيه سينه للفايه بسبب ما عاناه في
المصطل . وابدى كل واحد منهم عطفه عليه ومشاركته
الوجدانيه له ، ثم استأنف الجميع ما كانوا بصددده من
المناعشات . بدأت النساء الكلام ، تم تبعهن الرجال ، وكانما
اوحى اليهم الرثاء لحال نصرى ان يتباحثوا في موضوع تلك
الهدنه التى يعبت الاسرائيليون بها غايه العبت ، وتطرقوا
بعد ذلك الى الحديث عن الموقف بصفة عامة .

أما بالنسبة لنادية فان قلقها على حالة زوجها ، فضلا عما
تفيض به جوانحها من التوتر الذى اوجده لديها مسلكه —
بالاضافة الى حالتها الاصلية — كل ذلك جعل المساء يبدو
رلها وكأنه لا يؤذن بانتهاء .

وانتهزت حماتهل الفرصة فتشبثت بها وراحت تصب عليها
الحاحها أن تثنى نصرى عما اعتزمه من الانخراط في سلك
الفيلق العربى ، فهو بحاجة ماسة الى الراحة واسترداد
عافيته المنهكة .

وردت عليها نادية بأن نصرى سيصنع ما يريد ، وانه كان
دائما مطلق التصرف في أمور نفسه ، لا يصفى لتوجيهات
احد . ثم استأذنت في القيام لتطمئن على الطفلين زاعمة انهما
يستيقظان عادة في نحو هذا الوقت من الليل .

وذهبت بالفعل الى حجرة الطفلين والقت عليهما نظرة
سريعة فوجدتهما يغطان في نومهما كما توقعت ، ثم ذهبت الى
حجرة نومها وقلبها يدق دقا متلاحقا خوفا من أن لا تجد
نصرى هناك ، وهى في الوقت نفسه تخشى أن تجده
هناك ! .. وفتحت الباب في خوف ، وفي ضوء المصباح

الخافت المظلم بفلاحة حراء بجوار الفراشي ، استطاعت أن تتبين هيئة نصرى مستلقيا بكامل ملبسه على السرير ، وقد عقد يديه تحت رأسه ، وفي الحجرة رائحة سجاثر نفاذة .. فقالت له بعصبية :

— لقد تساءلت أين انت ، وحسبتك اويت الى فراشك . فقال لها :

— كان لا بد لى أن انفرد بنفسى . لقد عجزت عن تحمل البقاء بينهم أكثر من هذا ..

— ولكنهم جاءوا جميعا لىروك ، وفيهم والداك وسائر الأقارب ! ؟

فأجابها وهو راقد :

— اعلم هذا . ولكنى لست مستعدا لمقابلة الناس الآن ، وذهنى مثقل بالأفكار كما تعلمين .

فوقفت تنظر اليه مترددة ، وبعد برهة قالت :

— لقد اتفقت على موعد نذهب فيه غدا فى الساعة العاشرة معا الى الطبيب . انه صديقك القديم «هريد» (١) ، وقد سره أن يعلم نبأ عودتك الينا ، وهو يبعث اليك بأطيب تمنياته .

ولم يعلق نصرى على كلامها ، فأردفت :

— وهو يرغب فى ابقائى بعيادته اربعا وعشرين ساعة . وعندئذ سألتها :

— هل ينوى أن يقوم باجراء الجراحة غدا ؟ فأجابته :

— نعم . اذا طلبت اليه ذلك . فقال بمراره :

(١) هكذا كتبه المؤلف (Harid) ، ولعله تحريف «هريدى» .

— سأتطلب ذلك اليه . فليس لى فى الامر خيار . اليس كذلك ؟

فقال له بصوت غير ثابت كل الثبات :
— لا خيار لكلينا فيه ..

وشعرت بأنها لو استطاعت ان تلقى بنفسها الى جواره وتطلق لتحيتها العنان فسوف يخف كل ما تعانيه من توتر أعصابها ، بيد ان نبرة صوته اشعرتها بأنه لن يطيق منها هذا . وتحولت مبتعدة عن الفراش قائلة :

— لا بد لى ان امضى لتحية كل هؤلاء الناس تحية المساء ، وسأبدى لهم عذرك ، وسوف يدركون ويقدرون . أما والداك فستراهما فى الصباح ، لأنهما سيقضيان هذه الليلة هنا . وعادت الى القاعة التى بها المحتفلون . وعندما لحقت به بعد ذلك الفتى قد خلع ملابسه واندس فى الفراش واطفاً النور . ولم يكلمها حين دخلت الحجرة ، فسألته بصوت خافت :

— هل نمت ؟

فأجابها على الفور :

— لا . اكنث تتوقعين ان تجدينى نائماً ؟

فقال له :

— لا . لا . طبعاً لا .

وأرادت ان تطلب اليه ايقاد الصباح ، ولكنها خافت ان تقول له هذا ، فخلعت ثيابها فى الظلام ، وارتدت قميص النوم ، ومشطت شعرها على عجل ، ثم رقدت بجواره . ولم يتحرك . كان مستلقياً على ظهره فثم يحول اليها رأسه . وبعد بضع لحظات مدت يدها ولمست خده بلطف ، وتوسلت اليه :

— نصرى • كيف يمكن أن يشوب ما بيننا شيء وكل منا يحب الآخر ؟

فأمسك بيدها وابقاها في يده .. ثم قال :

— لأننا بشر •

فقالت له :

— إن احساسى من نحوك لم يتغير منذ يوم زواجنا • ولم تهف نفسى الى احد سواك ، ولو للحظة واحدة • صدقنى ، أرجوك !

فأجابها :

— انى أصدقك • ولكنى على الدوام ارى .. اوه • انت تعرفين ما الذى اراه • وليس فى وسعنى ان اخرج هذا الذى اراه من ذهنى • لا استطيع ان افكر فى الحب بعد الآن • كل ما استطيع الآن التفكير فيه هو المضى من هنا .. للقتال .. لأقتل كل من استطيع أن أقتله !

وتقلصت راحة يده على يدها بعنف ، وكانت حرية أن تصرخ من فرط الألم • ولكنها لم تصرخ • والاح عليها قائلاً :

— حاولى أن تفهمى •

فقالت له :

— انى أحاول حقا ..

ثم اردفت بضعف :

— أنت تؤلمنى •

فخفف قبضته قائلاً :

— آسف •

وانقلب على جنبه فصار وجهه اليها ، وقال :

— أفلا نحاول ان ننام ؟

فقالت له :

— ألا تريد حتى ان تقبلني ؟

فقبلها فوق جبينها ، فقالت :

— هذه لا تحسب !

فاجابها :

— اعرف هذا . ولذا لم افكر في الاقدام عليها ..

فسألته بحزن :

— أهى افضل ما تستطيعه ؟

فقال لها :

— في الوقت الحاضر : نعم .

فسألته :

— وهل تظن الحال سيكون افضل من هذا فيما بعد .. ؟

فاجابها :

— ارجو هذا . اؤكد لك انى اتمنى هذا !

وجذبها الى جانبه والتصق بها ، ودفن وجهه في كتفها

وبكى ..

وبعد ان هدا نشيجه ، قال لها وهو يضمها اليه :

— لم اكن ادري قبل وقوعى في يد اليهود ان فى استطاعة المرء تعذيب الناس من غير ان يلصمهم بأصابعه . انهم لم يضربوا أحدا منا ، ولم ينتزعوا اظافرنا . لقد سمعنا حكايات كثيرة من هذا القبيل ففزعنا ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث لنا شخصيا ، أعنى لأحد ممن كانوا سعى فى حجرة واحدة على الأقل ، وكان عددنا نحو عشرين . وكان المبنى الذى اعتقلونا فيه كبيرا ، فظننا فى البداية انها مدرسة ، ولكننا لم نستطع أن نجزم بشيء ، لأنه لم تكن لدينا فى الواقع ادنى فكرة عن مكان وجودنا ، فعندما ذهبوا بنا الى ذلك المبنى لم

نجد ما يدل اطلاقا على الغرض الأصلي من تشييده ، وكل ما لاحظناه أن به فناء واسعاً يحيط به سور مرتفع من الحجارة ، مما قد يصلح ملعباً لمدرسة . والحجرة نفسها كانت خالية من كل انواع الأثاث ، فيما عدا دلواً موضوعاً في كل ركن من اركانها الأربعة ، ليس له غطاء . وقد تم نقلنا الى فلك المبنى في سيارة نقل مقفلة من النوع الذي يستخدم في نقل الأغنام ! . . وكل ما هناك انهم ما كانوا ليكدسوا في السيارة كل هذا العدد من الغنم ، لأنها كانت حرة ألا تصل وهي على قيد الحياة ! . . وظلت السيارة تدرج بنا عدة ساعات ، وأنت تعرفين كم كانت الحرارة شديدة في ذلك الحين ، فاشتدت علينا وطأة العطش . وبمرور الوقت اشتدت حاجتنا ايضاً الى قضاء ضروراتنا العضوية . وقد توقفت سيارة النقل عن المسير عدة مرات ولكن لم يسمح لأى فرد منا بمغادرتها . وكان بجوار السائق في المقدمة جنديان آخران منهم ، ولكن ما من أحد من الثلاثة — أى الجنديين والجندي السائق — يعرف العربية . ولكن احدهم كان يعرف الانجليزية فلجأنا الى مخاطبته بها ، وأخبرناه ان فريقاً منا توشك مثاباتهم ان تنفجر ، وطلبنا اليه ان يسمحوا لنا بالنزول قليلاً لهذا الغرض القهري ، فضحك وأوصانا الا نضيع هذا البول كله سدى ، لأن في وسعنا ان نتجرعه اذا ألح علينا الظما !

فسالته نادية مندئذ :

— وهل تكرر هذا ايضاً في طريق العودة ؟
فاجاب نصرى :

— لا . فالرحلة لم تكن بمثل ذلك الطول . فنقلونا الى أحد مراكز المراقبة ثم تولى الحراس الاسرائيليون حراستنا

حتى الجانب الأردني من الحدود . أما في ذلك المبني — كائنا ما كانت حقيقته — فقد كان الحراس الاسرائيليون يشعرون بالسأم الشديد ، مثلنا تماما ، لأنهم لا يجدون ما يصنعونه . ولذا كانوا يقتلهم بنا ، فما نحن الا شرذمة من العرب ، أي من الحثالة ، ولسنا بشرا ! . . . ففي جوف الليل كنا نسمع صرخات يجمد الدم من هولها ، فينصرف تفكيرنا على الفور الى كل تلك الأفاصيل التي سمعناها تتردد من قبل عن انتزاع الأظافر . ثم يقوم أحد الحراس الليليين بفتح باب حجرتنا ويقف به باسماء ليقول : « **من الذي عليه الدور ؟** » ، ثم يتلو بضعة أسماء . ثم يأخذ من تكون اسماءهم من فريقنا الى الممر الخارجى ، حيث يقوم زملاؤه المنتظرون هناك ببنادقهم بربط أيدينا وراء ظهورنا ، ثم نساق فنهبط السلالم الى الفناء الكبير ، وهناك يوقفوننا ووجوهنا الى الجدار . وعندئذ يقول احد أولئك الحراس : « **ان كان منكم احد يريد ان يتلو صلاته الأخيرة فليسرع بادائها** » ، او يقول شيئا من هذا القبيل . ويشرع الجميع — مسلمين ومسيحيين معا — في تلاوة الصلوات . . .

فسأله نادية :

— وأنت ! هل كنت تتلو صلاتك ايضا ؟

فأجابها :

— بل كنت اصلى ولكن فى قلبى . أما لسانى فلم يكن

ليتحرك .

فسأله :

— وماذا كنت تقول فى صلاتك ؟ هل كنت تفكرنى فيها ؟

فأجابها ، جادا :

— كنت اطلب من الله ان يعينى ابنى حتى ينتقم لابيهِ .

وكانوا يتركوننا في هذه الحالة ساعتين ، والحراس يسيرون بلا انقطاع من وراء ظهورنا انتظارا لفرقة اطلاق النار التي لم تصل مطلقا ، وانتظارا لموت لم يحدث فعلا — وان حدث معنويا في كل دقيقة بل كل ثانية من ذلك الوقت الطويل الرهيب ! — وفي النهاية يعيدوننا الى حجرتنا .. وبعد بضع ليال أخرى يأخذون مجموعة أخرى من حجرة مجاورة ، وننظر نحن من النوافذ والفثيان والجزع مستوليان علينا ، ونحن نتساءل واجفين هل سيفعلونها حقا في هذه المرة أم هو اللهو الماجن . وكنا ندرك أن المساكين المصطفين من تحتنا في الفناء يعتقدون أن ساعتهم الأخيرة قد دنت ، مثلما كنا نحن نعتقد ذلك في حينه .. كلا ! أنهم لم يلمسونا كما قلت لك ، ولكنهم فقط كانوا يعذبوننا بالارهاب والرعب والاذلال .. وكانوا ايضا يجيعوننا .
فسألته نادية :

— وماذا كانوا يقدمون لكم لتأكلوا ؟
فأجابها :

— خبزا اسود وشيئا سائلا كالماء القذر يسمونه حساء .
ولست اعتقد أنهم كانوا يبديون لنا كراهية . حتى هذا كانوا لا يعتبروننا أهلا له . فهم المنتصرون .. وكل ما هناك أنهم يحتقروننا ويزدروننا !
وظل نصرى راقدا بجوار زوجته ملتصقا بها ، متشبثا بأعطافها بين ذراعيه ، وهو يحدق في الظلام ..
ورفت شفتاها على جبينه الملبل بالعرق . وناشدته بحنان قائلة :

— حاول أن تنام ..
فقال لها :

— لا أستطيع . فاني متى اغضت عيني خيل الى اني عدت الى تلك الحجرة اللعينة ، واني بعد لحظة واحدة ساسمع صرخة ، ثم وقع خطوات عسكريه ثقيله في الممر الخارجى ، ويفتح باب الحجرة ليبرز جندى اسرائيلى يبتسم ابتسامه عريضة ويقول : « من الذين عليهم الدور الآن ؟ » .. ثم يتلو اسماء من قائمه بيده ، واسمى من بين هذه الاسماء .. !

فقال له :

— انت الآن فى امان . لقد انتهى كل هذا الآن . انت هنا فى (رام الله) ، فى بيت خليل ، وقد صرنا معا مرة اخرى ! فاشتدت قبضة ذراعيه تعصرانها بكل ما فيه من توتر عصبى ، حتى انها لم تكد تطيق هذا الضغط الذى لا يدري به ، وقال :

— انه شيء اشبه بالكابوس . وانا اقاومه ولكنى لا استطيع ان اتحرر منه ، فهو يلزمنى باستمرار .
فهدأت من روعه قائلة :

— سيذهب هذا كله عنك . غدا سأسأل الطبيب ان يكتب لك حبوبا منومة . ومتى نعمت ببضع ليال من النوم العميق شعرت بتحسن كبير .. تأكد ان هذا كله سيذهب عنك .

وقالت فى نفسها بمرارة :

— ما الذى فعلناه كلانا فى أى يوم من الايام باى يهودى حتى ينزلوا بنا كل هذا العذاب ؟ بل ما الذى فعله اى عربى فى اى يوم من الايام حتى يفعلوا بنا جميعا كل هذا الشر والبلاء المقيم ؟

- ١٠ -

قضى بطرس وماريان طيلة ذلك الصيف المحرق في اريحا ، ولم يحظيا باستقبال زوار فيما عدا بضع زيارات رسمية قام بها الأعيان المحليون في الأيام القلائل الأولى بعد وصولهما للترحيب بعودة بطرس الى دار السلام ولابداء اسفهم ومواساتهم له على ما ضاع من امواله وارضيه وداره في (اللد) .

والحقيقة ان الزوجين لم ينعما على الاطلاق بأي نوع من الحياة الاجتماعية ، الى أن بدأ العام الدراسي فذهب انطون الى مدرسة الأمريكان في (رام الله) ابتداء من اواخر سبتمبر ، وبعدئذ صارا يريان «فريد» كل بضعة اسابيع عندما يأتي معه بالغلام لقضاء عطلة الاسبوع مستقلين سيارة خليل . وكان البنزين قد بدأ يوزع بالبطاقات بطبيعة الحال ، فكان من المستحيل على فريد وانطون القيام بهذه الرحلة ما بين رام الله واريحا في فترات اقرب من ذلك . وكانا كلما قدما الى اريحا يرحلان عنها عائدين الى رام الله في صباح الاثنين عند شروق الشمس او بعده بوقت وجيز جدا . وفي فترة عطلة عيد الميلاد جاء فريد ومعه ماجدة ونادية والطفلان فبقوا جميعا الى ان حان موعد اوبة انطون الى مدرسته في آخر يناير .

وكانت نادية تفتقد نصرى كثيرا ، وكان قد رحل الى عمان ليتلقى تدريبا عسكريا في صفوف الفيلق العربي ، ولكنها كانت تشعر بالسعادة في دخيلة نفسها لانها استطاعت

ان تنسى تلك الحادث الفظيع الذي وقع لها في اللد ، بعد ان اصبحت حبلى مرة اخرى ، ولكن من نصرى في هذه المرة .
 لقد حدث ما لم يكن يعتقد نصرى انه سيحدث . فما ان تمت لها جراحة الاجهاض وبرئت منها بفضل شبابها القوى بسرعة ، حتى وجد نفسه وقد تخلص من الصدمة التي خالها ستحول بينه وبين زوجته الحسناء الى الأبد . وقبل أن يدرك ما حدث ألقي نفسه قد استعاد علاقته الحميمة بين أحضانها .
 واعقب ذلك التحطيم المادي لآثار الصدمة تخلصه تدريجاً من آثارها المعنوية ، وتغير حاله من الشرود شبه المرضى الى الاقبال السوي على الحياة ومتاعها المبدول له كسابق عهده .
 وقبل رحيله الى عمان بيوم واحد اقيمت له حفلة اخرى . ولكن ما ابعد الفرق بينها وبين حفلة استقباله الأولى . فقد اجتمع الكل على ان هذه الحفلة الثانية كانت اشبه في جوها المزج البهيج بحفلات الاعراس .

وعن هذه الحفلة ايضا تخلف آل منصور لأن بطرس كان متوعكا . الا أن فريد الذي تولى توصيل نصرى بالسيارة الى عمان في صباح اليوم التالي حرص اثناء الرحلة على أن يمر على اريحا ليحظى الشاب الذاهب للقتال بدعوات وبركات عم زوجته ورأس اسرتها .

ولم يكن نصرى قد رأى بطرس منذ اربعة اشهر . فصدم بمنظره ، وخيل الى نصرى ان الرجل بدت عليه الشيخوخة والعلة فجأة ، كأنما يد الموت قد شرعت تلمسه بالفعل . وكانت صحة بطرس قد تدهورت كثيراً في الواقع منذ المسيرة المشؤمة من اللد الى رام الله . وساءت حالة قلبه الذي كان يعاني منه منذ سنوات ، واخذ يشكو مر الشكوى من نقص في الفخذ ، حتى ان اهون الحركات التي كان يضطر الى القيام

بها كانت تؤلمه ولا يقدر عليها الا وهو يظلم ظلعا شديدا .
ولم تكن آلامه الجسدية كل ما ينوء به بطرس ، فحزنه واساه
ويأسه ومرارته لم تكن اخف وطأة عليه من امراضه ، فتمخض
اجتماع علة البدن وعلة النفس عن تحطيم ما بقى سليما من
قلبه . كان قد اعتزل الدنيا في هذا المكان متحملا حرارته
القائظة أملا في الا يجد ما يذكره بداره واراضيه وشروته التي
تركها في (اللد) بين يدي معتدين غاشمين يسمون أنفسهم
بالاسرائيليين ، بيد انه ظل يفكر في ذلك كله كل يوم . بل
لا تكاد ساعة من ساعات اليوم تخلو من استغراقه في ذلك
التفكير ، فالتهم هذا الهم روحه كما يلتهم السرطان خلايا البدن .
لم تكن في رأسه فكرة سوى أن فلسطين لن تتحرر وهو
على قيد الحياة . . فان كتب لأنطون ان يعيش ليشهد يوم
ذلك التحرير — الذي قد لا يحين الا بعد خمسين سنة —
فسيكون انطون يومئذ في مثل سن ابيه الآن . وفي ذلك الوقت
ستكون الدولة الاسرائيلية التي فرضت عنوة وغدرا على قلب
الوطن العربي قد آذنت بالازوال بفعل تيار التاريخ الطبيعي .
الآن الظلم لا بد في النهاية أن تدول دولته كي يسود الحق
والعدل .

بهذا كان يؤمن بطرس فعلا ، ولكنه لم يكن يأمل ان تأتي
نهاية تلك الشرذمة الظالمة في يوم قريب جدا ، وبصورة درامية
خارقة ، على يد جيش للتحرير . . وان الدول ستفرض على
الطرفين هدنة في الوقت الحاضر . هدنة ترسم فيها حدود
جبرية تحكيمية . وسينتهز اليهود هذه الفرصة المواتية لهم
كي يعززوا مكاسبهم ويحولوا ما أحرزوه من نجاح خاطف غادر
الى نصر موطن الأركان .

وبمجرد أن بدأ البرد يشتد في منطقة التلال اخذت جموع أخرى من اللاجئين تتدفق من رام الله عبر الوادي وعلى الطريق المفضي الى اريحا ، متوجهين الى القاع الدافئ لبرية تلك المنطقة المنخفضة . واقاموا في الكهوف أو على جوانب التلال القاحلة . ومنهم من نصبوا خياما مرتجلة . وكان عددهم بضعة آلاف ما بين رجال ونساء واطفال قادمين من اللد ومن الرملة ومن القرى والكفور المنتشرة في تلك البقعة من الريف . وكلهم مهملو الثياب مشردون معدمون جوع . وما هم في الواقع الا جانب يسير - على ضخامتهم - من ذلك « الخروج » الفلسطيني الواسع الفاجع الذي يعتمد في اقامه اوده وستر عريه على معونة غير مستقرة التنظيم كل هدفها ان تكفل لهؤلاء مجرد البقاء على قيد الحياة ولو فيما هو ادنى من المستوى المفروض لمعيشة البشر !

ومن شرفة الطابق الأول في دار منصور بأريحا يستطيع الناظر ان يرى فيما وراء جبل التجربة عند سفوح التلال مدينة كاملة من الخيام الممزقة والاكشاك الخشبية والاحصاص هي النواة الأساسية لما كان مزعما ان يغدو اكبر معسكر للاجئين في الأردن .

وكان بطرس وماريان يجلسان معا في تلك الشرفة وينظران اليها من خلال اشجار السرو الطويلة في حديقتهما . ولكنهما في كثير من الاحيان كانا يحقدان فلا يريان شيئا لأن نظرتهما تكون قد امتدت الى بعيد فيترأى لهما بيتهما في اللد والممر الكبير في الحديقة وعلى جانبيه اشجار الجزورينا واشجار النخيل الباسقة . وفي ذلك الإطار تتمثل أمام ناظر بطرس سحنة تلك المرأة الاسرائيلية المجندة التي بصقت عليه وانذرتة بأنه ما لم يهرع بالرحيل فلن تساوى حياته فلتما واحدا !

وكانت ماريان حين تنظر الى وجهه تفكر ما يدور في ذهنه في تلك اللحظات ، وتذكر انه لا يتألم لفقدان داره وأراضيه وتقوده وممتلكاته المادية فحسب ، بل انه فوق آلامه الجنسية المصنية التي حاقت به نتيجة لتلك الهجرة الشاقة يشعر بألم القسي وادهى لما أصاب كبرياءه من جرح ، ولما يشهده من اذلال جماعى الشعب الفلسطينى بأسره . فحياتهم جميعا — وعددهم يقدر بمئات الألوف — لم تعد تساوى فلسا واحدا .

وفي اول ديسمبر قررت حكومة الأردن ضم الضفة الغربية لنهر الأردن الى أراضيه . وكانت هذه الضفة هى كل ما تبقى من فلسطين العربية فيما عدا قطاع غزة . وهكذا انتهى وجود شرق الأردن كما انتهى وجود فلسطين في العرف الدولى ، وحلت المملكة الأردنية الهاشمية الجديدة محل دولة شرق الأردن على تخوم فلسطين السليبة . وهكذا تلاشى آخر ملاذ لحلم الوطنيين الفلسطينيين فى بقاء شخصية وطنهم المستقلة ثلاثينيا تماما فى هذا الجانب . ولم يبق لذلك الحلم العزيز من موئل الا البقعة الصغيرة فى الجنوب حيث تحمى القوات المصرية غزة .

وفكرت ماريان فى أبيها . ولم تكن بحاجة الى خطاباتته التى ينتقى الفاظها بحيلة وحذر ومداراة كي تعرف ما يجول بخاطره وما يعتل فى مشاعره .

وكان قد كتب اليها يقول :

— لماذا لا تأتىان كلاكما الى انجلترا ومعهما انطون ؟ ان فى الوسع انخال انطون احدى المدارس الجيدة هنا فى انجلترا .

وقد ادركت المقنى الذى يرمى اليه بهذه العبارات

واحسنت ان ما يعرضه لا يمكن قبوله ، لما فيه من معنى
التخلي عن الوطن الفلسطيني نهائيا .
وكتبت اليه تقول :

— بطرس لن يغادر أريحا الا كي يعود الى (اللد) .
وذلك يعني بطبيعة الحال انه لن يغادر أريحا !
ثم حل بعد ذلك عيد الميلاد ، وأعلن بطرس انه ينوى حضور
صلاة قداس العيد في كنيسة الروم الأرثوذكس بأريحا لانه
لا يجد في نفسه ميلا للتوجه في هذه المناسبة الى القدس .
وذهب انطون معه الى تلك الكنيسة بطبيعة الحال . وكذلك
ذهبت ماريان لانها تريد في ذلك اليوم أن تلازمهما .

كان يوما دافئا مشمساً برزت فيه صفحة السماء بهيأ
الزرقة خالية من الغيوم ، وكانت الأزهار الياقة تبرز في كل
مكان مائلة في تزامح حافل بالألوان والعبر فوق الأسوار
القديمة والعريشات الخرمة ، ما بين خمرية اللون ، وقرمزية ،
وحمرء قانية ، وبيضاء ، وذهبية . فكان الدنيا في عرس
أخذت له الطبيعة زخرفها وازينت .

وشعرت ماريان وهي تدخل البلدة الصغيرة بما كانت تشعر
به دائما من فتنة هذا الاقليم ذي المياه الراكدة . الا أن
ما كانت تتسم به البلدة من الهدوء الذي يشبه التهويم للكرى
قبد انجاب عنها ، فاذا الشارع الرئيسي الآن — بأشجاره
الصغيرة المتلوية المعروقة — قد غص بأناس غرباء يجوبونه
على غير هدى . والنساء منهم مكتسيات بالاثواب المطرزة
المعهودة في القرى الفلسطينية . اما الرجال فعليهم سترات
أوربية رثة فوق جلابيب بيضاء او مخططة تنهول على
اعقابهم . والرجال والنساء على السواء يسحب كل منهم
وراءه سربا من الأطفال الصغار ، في تجوالهم الذي لا يقر

له قرار . فكل مرادهم ازجاء الوقت : وقت اللاجئين الذي لا نهاية له لأنه لا مشغله لهم ، وبطونهم خاوية من الجوع . ولكن قابوهم أجوع من بطونهم واشد منها افتقارا الى ما يبعث فيها الحرارة والنفس . .

وتطلعت ماريان الى مجيا زوجها المتجهم وهم في السيارة — هي وبطرس وانطون — وكان يوسف يتولى القيادة ، وهي على يقين من أن ما يجول بخاطر بطرس مطابق لما يدور في ذهنها : فهاهم الناس الذين عانينا معهم مشاق تلك المسيرة الوحشية . وكل ما هناك اننا أسعد منهم حظا ، لأنه كان لنا مكان معد لاستقبالنا اتجهنا اليه . كان لنا بيت آخر ، أما هم . . فلم تكن أمامهم الا البرية !

وأحسنت ان الغضب والشفقة والألم تهوج في خليط مضطرم داخل صدر زوجها . وكذلك كان حالها ايضا . ولكن احساسه هو كان اشد ضراوة ، بما في نفسه من نخوة الرجولة وبواعث الوطنية الحريجة .

وبعد ذلك شملتهما الكنيسة الصغيرة الرطبة الأنفاس ، التي تملأ العتمة جنباتها ويفغم الأنف عبر بخورها ، ومن فوق رؤوسهم شمعدان ضخيم به سبع شموع تضيء كأنها النجوم الدراري في تلك الظلمة ، رمزا للنور الذي أفاضه على الدنيا مولد المسيح بما جاء به من هداية الروح ورسالة الحب والسلام ونقاء الضمير .

ولم يقدر بطرس في الجانب الأكبر من وقت الصلاة على تلك التوقيات الطويلة ، فجلس منتصب القامة الى الأمام في مقعده ويداه متشبثتان بمقبض عصاه . وبين الحين والحين يشير بيده راسما على صدره علامة الصليب ، مؤديا بذلك الحد الأدنى من شعائر الصلاة ، بيد انه كان يتابع الطقوس التي يؤديها الكاهن بأقصى ما يمكن من الانتباه والاهتمام .

انه لم يكن من غلاة المؤمنين الاتقياء بطبيعة الحال ، ولكن الذهاب الى الكنيسة في يوم عيد الميلاد أمر يقدم عليه المرء بحكم تربيته وتعوده ، مثلما يعطى الصدقات للفقراء ، او مثلما يصيح بخدمه آمرا او ناهيا ، او مثلما يقدم لضيوفه ونداماه شراب « العرق » وطعام « التبولة » ! .. فبطرس — في الجانب الأكبر من السنة — ضعيف الايمان ، حتى اذا حل عيد الميلاد ، ومن بعده عيد الفصح ، جنح من عدم التصديق الى التصديق ، بحكم الرواسب التي في نفسه من ميراث الجدود وتربية الأيوين ، فيدخل عندئذ الكنيسة ، غير متخل عن سمته واعتداده كأنه في داره ، ولكنه يظل حاضر الذهن في ضرب من الركوع المعنوي المجامل .

وكانت ماريان قد سألته ذات مرة في فجر زواجهما :
— لماذا اذن تذهب الى الكنيسة ما دمت لا تؤمن ايماننا عميقا ؟

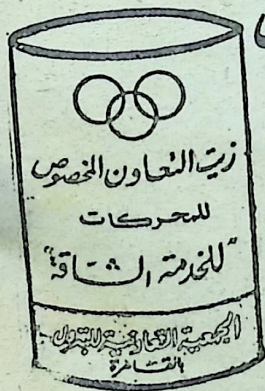
فافتتر فمه عن ابتسامته الأسيفة وقال لها :
— **لأننى في هذين الأوانين من الصام لا أكون واقفا تمام الثقة من مدى عدم ايمائى !**

أما انطون فلم تكن في نفسه ادنى رغبة ، وايمانه عميق . فوقف بجواره وراح يتابع كل ما يجرى عند المذبح ، بتركيز ذهنى نشوان . وامتلات نفسه خشوعا وخشية لتلك الطقوس المقدسة التى يجرى أمام عينيه تمثيلها . وعندما حان وقت رفع القربان المقدس امام انظار الناس احنى رأسه فى صلاته العميقة وهو موقن من أن هذه اللحظة بالذات هى اللحظة التى تكون فيها الصلوات اقدر على الصعود الى ساحة الله واستجلاب رضاه .

وكان من عادته دائما أن يصلى طالبا من الله ان يعينه كي يحيا حياة صالحة ، وأن يحمى أبويه من كل شر مادي

ومعنوي . ولكنه في هذا العيد - وهو أول عيد للميلاد في فترة التشتت الفلسطيني - رفع الى الله صلاته كلها من أجل شعب ابيه ، لأنه شعر بعد تلك تجربه الوحشية ان التيه انه قد صار هو وذلك الشعب شيئا واحدا في الحال والمصير .

تصرع انطون في صلاته الحارة الى الله أن تشاء مراحمة التي لا نهاية لها عودة شعب فلسطين المشتت الى وطنه السليب ، لأنه لا يليق بعدل الله ورحمته الا أن ينتصر الخير على الشر ، وأن يسود الحق والعدل كما وعد المؤمنين .

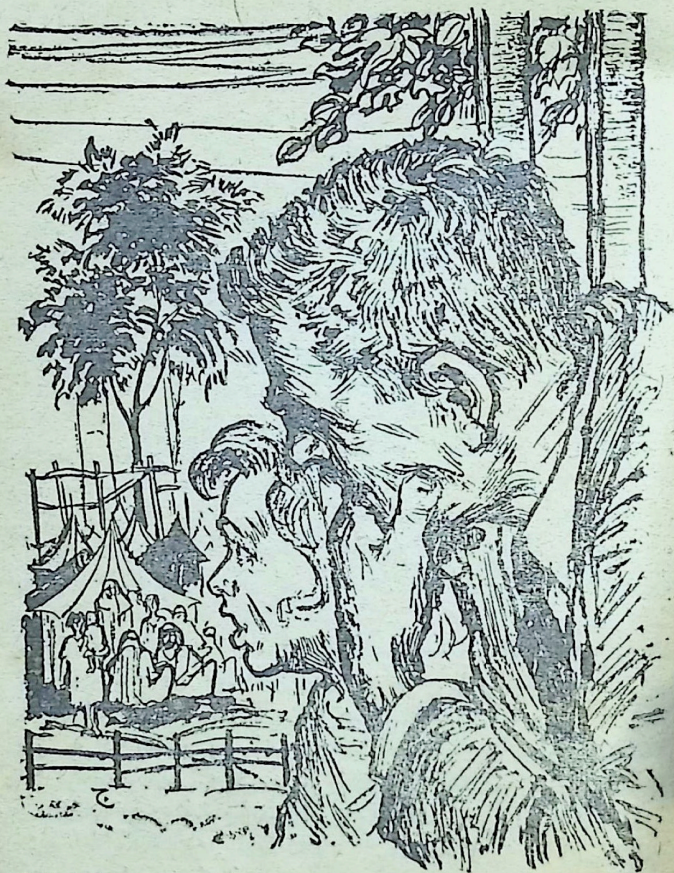


الجمعية التعاونية للبترول

تخدم في خدمة الاقتصاد القومي



في جميع محطات الجمعية التعاونية للبترول



« .. وكان بطرس وماريان ينظران من شرفتهما الى خيام
اللاجئين .. »

- ١١ -

كان أهم ما يشغل ذهن انطون هو الزراعة الى الله ان يمنحه صديقاً يشغل الفراغ الذى تركه « أمين » . ولم يكن اعزازه للصبي الأعمى قد تغير ، ولكنه لم يعد ملازماً له . ولم تتحسن الحال عندما قام بزيارته في مدرسة العميان ببيت لحم . وكان يحلم بقضاء أمين العطلة معه في اريحا ، ولكن والدته أمين اصرت على التثام شغل الأسرة في تلك العطلة . ثم ان قضاء العطلة مع أمين ما كان ليشفى غليله لأنه يشعر بالحاجة الماسة الى صديق يملأ حياته كل يوم ، في المدرسة وفي خارج المدرسة .

انه لا ينكر ميله الى بعض زملائه في مدرسته الجديدة . ولكنه ميل لا يصل الى درجة الجاذبية القوية والألفة الحميمة . فما من واحد منهم يمكن ان يقول عنه في اعتداد وثقة « هذا صديقى » .

وكانما استجابت السماء لدعائه الصامت فالتقى بعد عودته الى المدرسة أثر عيد الميلاد بزميل يدعى « وليد حسين » ، طويل القامة ، اسمر اللون ، جميل القسمات ، ولكن لا يبدو عليه انه يشعر بجماله . وهو اكبر سناً من انطون شيئاً ما ولا يجمعهما صف واحد . وكان أول التقاء بينهما اثناء اشتراكهما في مشاهدة مباراة لكرة القدم . وأول ما لفت نظر انطون الى وليد ان وليداً ابتعد عن الزحام في فترة الاستراحة (الهاف تايم) واوغل بين اشجار السرو حيث جلس على الأرض تحت شجرة كبيرة منها ، مما دل على شعوره بالوحدة في هذا الحشد من الطلاب ، فاتجه انطون اليه وباداه الحديث

حول المباراة واحتمالات الكسب . ثم تطرق الكلام الى موضوعات شخصية :

— من أى بلد انت يا وليد ؟

— من (بئر سبع) . كان ابى مدرسا هناك ولكننا هاجرنا منها قبل دخول اليهود اليها وانتقانا الى (الظهيرية) حيث اهل ابى . وهى من قرى الحدود . هل تعرفها ؟

— لا . فأنا من (اللد) . جئت الى هنا مع اسرتى فى الصيف الماضى واسمى انطون منصور .

— مسيحى انت ؟

— نعم . وأمى انجليزية ، ولكنها تعتبر نفسها فلسطينية . وضحك الفتى الأسمر وقال له :

— وانت ماذا تعتبر نفسك ؟

— عربيا بالطبع ، مثل أبى ..

— حسبك هذا عروبة ، بالاضافة الى شاعر والدتك الشخصية .. اما جنسيتها الانجليزية فأمر ثانوى .. ثم جلس انطون بجواره واسند ظهره مثله الى الشجرة وقال :

— ان عمتى متزوجة من مسلم .

— وما الفرق بين المسيحي والمسلم ؟ كلنا نؤمن بالله واحد .

— كان ابى من كبار الملاك فى اللد . من اكبرهم فى الواقع . وانا بيت فى اريحا وبعض بساتين يرتقال . ولكننا لم نعد أغنياء كذى قبل .

وضحك وليد وقال :

— ولكتكم لستم فقراء ! اما اهلى فقراء . فقراء جدا ،
وابى يشتغل الآن بالتدريس فى (المالحه) ، وعدد اسرتنا كبير
جدا وانا اكبرهم . وعمى مدير البنك قد تبناى لانه معجب بى ،
وان كان يكره ابى ويزدرىه ، لانه اولا اذكى اعضاء الأسرة
وثانيا لانه اقلهم مالا فلا اهتمام له بشىء سوى العلم والتعليم .
ولكن عمى يغيظه منى اننى لا اعرب له عن عرفاتى بجميله
اذ ادخلنى هذه المدرسة على حسابه . فهو فى الواقع لم يزد
على ان قام بواجبه باعتباره اغنى رجل فى الأسرة ، ولان الحظ
قد خدمه فلم يصبح لاجئا مشردا . وستزداد خيبة امله عندما
يعلم اننى لا انوى الاشتغال بالتجارة والأعمال المالية مثله
بل أريد ان اكون معلما كأبى . ولكن ماذا تريد انت ان تكون ؟
— لا ادرى . فعندما كنا فى اللد قبل اغتصاب املاكنا كان
المفروض اننى سأساعد أبى فى ادارة مزارعه . ولكنى لا اريد
على كل حال ان اشتغل بالتجارة . وفى الوقت نفسه لا احسبنى
مستطيعا ان اشتغل بالتعليم اذ تنقصنى براعتك .

— ومن ذا الذى قال انى بارع ؟

— هذا هو اعتقادى فيك . وقد قضيت الشهور الماضية
هنا بغير صديق ، واتمنى ان تغدو انت صديقى .

— ولم لا ؟

ولم يهتم انطون بزيارة وليد فى بيت عمه — حيث يقيم —
ولا بدعوته لزيارته فى بيت عمه هو « داود » ، حيث اولئك
الفتيات السخيفات بنات عمته . ولكنه اهتم غاية الاهتمام
بدعوته الى اريحا ، لا ليقدمه لوالديه فحسب ، بل ليجعل منه

جزءاً من حياته هناك على الخصوص . وهو يعتبر أريحا وطنه الحقيقي الآن كما كانت اللد من قبل .
 ولم تكن لدى وليد معرفة سابقة بأريحا سوى انه مر بها وهو في سيارة عمه المسرعة . وقد سر بذهابه الى هناك مع انطون في سيارة زوج عمته خليل وان كان الذي تولى القيادة هو عمه فريدا . واعجب وليد بجمال بيت آل منصور هناك بين اشجار النخيل وبساتين البرتقال . ولكن اهتمامه الأكبر كان موجها الى تسلق الجبل مع انطون في اقرب فرصة .
 وقد ترك ابوا انطون في نفسه تأثيراً طيباً جداً واعجب بطلاقة لسان والده انطون الانجليزية وهي تتكلم العربية ، حتى لقد صارحها بأنه ما كان ليدرك انها انجليزية لولا ان انطون اخبره بذلك .

اما بطرس وماريان فأعجبهما تهذيبه وغفلته عن محاسن شكله وقوامه ، وسرهما ان يجد فيه انطون صديقاً مخلصاً ، وان كانت ماريان احست ان هذه الصداقة اعز لدى انطون منها لدى وليد ، وادركت ايضا ان وليدا انكى من انطون واشد منه حيوية . . . وتنبأت بان القيادة ستكون دائماً لوليد ، وان انطون سيقنع بدور التابع الأمين . وخشيت في الوقت نفسه ان يسأم وليد يوماً ما من ولاء صاحبه الصغير واعجابه الذي هو من قبيل عبادة البطولة ، فيتخلص من صحبته .

ولكن انطون لم يشعر الا بالسعادة في صحبة هذا الصديق الجديد الذي زادت مكانته على مكانة امين الاعمى . لانه في صحبة امين كان ملزماً بأن يجعل امينا يرى الدنيا من خلال عينيه . اما وهو في صحبة وليد فهو يرى الدنيا من خلال عيني وليد . كل ما يستلمحه وليد فهو مليح وكل ما يستقيحه فهو قبيح !

وبدا وليد يفكر في مشروع لعطائه عيد الفصح . ولكن هذا المشروع يحتاج الى استخراج تصريحين رسميين سيتكفل بهما عمه مدير البنك ، على ان يذهبوا اولا لقضاء ايام عند اقارب وليد في (الخليل) ، وهم قوم فقراء يمتلكون حانوتا صغيرا لبيع مصنوعات الخليل الزجاجية المشهورة . وبعد الحصول على التصريحين يتوجهان الى (الظهيرية) حيث اهل ابيه الذين يفلحون قطعة صغيرة من الأرض بأيديهم . وهناك يستطيع الصبيان ان ينظروا على طول الطريق الى بئر سبع وان يتطلعا عبر الوادى الى الأرض المحتلة . وقد يستطيعان التسلل الى هناك !

— ولكن هذا التسلل خطر يا وليد . قد يقتلنا اليهود !
 — خطر ولكنه ممكن . بئر سبع بلدى ومن حقى ان اعود اليها !

وفي هذا الحلم قضى انطون ايامه انتظارا لمقدم الربيع .

وفي يوم ٢٤ فبراير حددت خطوط الهدنة بين القوات الاسرائيلية والقوات المصرية . وفي اليوم الثالث من ابريل وقعت الأردن في (رودس) اتفاقا بشأن خطوط الهدنة بينها وبين الجيوش الاسرائيلية أيضا . ولكن خط الهدنة الأردنية الاسرائيلية قسم في طريقه كثيرا من البلدان والقرى والأراضي الزراعية بحيث فصلت قرى كثيرة عن أراضيها ، وقسمت بيوت كثيرة في منتصفها بحيث كانت الحجرات الأمامية في الأراضي الأردنية والحجرات الخلفية تحت سيطرة اليهود ! .. وبلغ عدد القرى التي مزقت شذرا على هذا النحو ٢١١ قرية حرم سكانها من مصادر رزقهم وهي الأرض التي يفلحونها . وقد اشرف على هذه المباحثات الوسيط الأمريكي الدكتور باننش الذي كوفئ باهداء جائزة نوبل للسلام اليه ! ..

وكانت القوات الاسرائيلية قد زحفت على (العقبية) في الجنوب في اثناء هذه المباحثات في شهر مارس ، كما تقدمت قوات اسرائيلية اخرى وتغلغلت بين مواقع الفيلق العربي في منطقة (الخليل) .

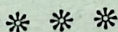
وكان بطرس يصفى الى الأنباء في الراديو ويطلع الصحف التي تصل اليه ولا يكاد يعلق بشيء على ذلك كله ، لأن احساسه بالكارثة كان تاما بعد ان تمزقت وحدة فلسطين ، وبعد ان ضم الى الأردن ما تبقى من وطنه الجريح . فلا اهمية في نظره لشيء بعد ذلك . وهيهات ان يضير الشاة سلخها بعد ذبحها !

لهذا كان بطرس يأبى الخوض في حديث السياسة مع اخيه فريد حين يزوره ، ويعجب لتحمس فريد واهتمامه البالغ بما يحدث ، واصراره على ان فلسطين سيسترد حريته واستقلاله، ويجيبه باسماء :

— لنواجه الواقع ! لقد قضى على شعبنا بالتشتت . وان كنت احسدك على ايمانك الذى لا يتزعزع . اشرب كأسا من الويسكى فانى احسبه اجدى عليك من ايمانك كله !

والحق ان بطرس كان يفرط فى الشراب . وكانت ماريان تبدي قلقها لسوء تأثير ذلك فى صحته . وشاركها فريد ذلك القلق . وكان بطرس يرد على ذلك دائما بأن الويسكى يريجه من الهم والكآبة وهما اضر بصحته من الافراط فى الشراب ، ويؤكد أن مشروبه المفضل هو الشيء الوحيد الباقي فى حياته مما يراه جديرا بالمناقشة !

ولم يكن بطرس صادقا كل الصدق فى ذلك . لأنه حين يخلو الى زوجته ماريان كان يناقشها فى امور جدية كثيرة ، منها مستقبل ابنهما . ولم يكن تظاهره بعدم الاكتراث بالسياسة الا قناعا زائفا . وهو فى الواقع كان يتجنب المناقشة ، لآلاته غير مكترث بل لأن الموضوع يؤله لما يجمل الخوض فيه فوق طاقته !



وكان انطون قد حصل من والديه على اذن بقضاء بضعة ايام من عطلة الفصح بالخليل . بيد ان وليد جعله يتعهد له بالا ييوج لوالديه بشيء عن ذهابهما بعد ذلك الى الظهيرية ،

خيفة ان يمانعا في ذلك لقربها الشديد من خط الهدنة . وفي حالة الممانعة سيثعر انطون بتأنيب الضمير اذا خالف والديه . وكان وليد يضيق بسُلطان الأبوين ويعتبره فضولا مرهقنا . ولذا اقترح على انطون ان يخبر ابويه بذهابهما الى الظهيرية بعد عودتهما من هناك . وما من شيء ادل على وقوع انطون تحت سيطرة صديقه الجديد من قبوله ذلك الوضع ، خارجا بذلك على ولائه لوالديه لأول مرة في حياته !

والحقيقة ان وليدا كان ينظر الى الأمور نظرة تختلف عن نظرة انطون اليها . فهو لا يتردد في الخديعة والكذب اذا كان ذلك كفيلا بوصوله الى هدفه . اما انطون فهو على العكس من ذلك . والاختلاف بينهما ناجم عن اختلاف الطبائع والمزاج لا عن اختلاف العقيدة بطبيعة الحال . فالكذب في الدينين حرام ، وعدم اطاعة الوالدين في الدينين حرام . ولكن التكوين النفسى لا يتقيد دائما بنواهي الدين واوامره .

وكان قد تقرر ان يتولى يوسف ، خادم بطرس في اريحا ، توصيلهما الى الخليل في السيارة على ان يعود لاحضارهما في اليوم المحدد . وفي ساعة مبكرة من الصباح بدأت الرحلة بين التلال الصخرية والرملية الجرداء الى القدس القائمة فوق تلالها الشهيرة مشرفة على الوادى العميق . وكان وليد مشوقا الى مشاهدة المدينة المقدسة التى لم يرها منذ اكتوبر الماضى ، اما يوسف فكان في حالة عصبية سيئة لخوفه من القنصاة اليهود وهو يقود السيارة على طول المنطقة الحرام بما فيها من بيوت قوضتها القنابل وحدائق وغياض من اشجار الزيتون العتيقة وقد اهلكت وتكاثرت فروعها على غير نظام . فكان همه كله في الوصول الى بر الامان واجتياز القدس بسرعة للتوجه جنوبا الى الخليل .

ولما صارت القدس وراء ظهورهم شرع وليد يكلم صديقه بالانجليزية للتعمية على يوسف ، فقال انهما سيذهبان في الغد الى الظهيرية حيث يقيم جداه . وسيكون ذهابهما على دراجتين يقترضانهما في الخليل . والمسافة لا تزيد على عشرة كيلو مترات . وهناك عند نقطة للمراقبة تمر الطريق المتعرجة بين التلال الى بئر سبع . ولكنك لا تستطيع بطبيعة الحال ان تسلك تلك الطريق لانك ستصادف بعد بضعة اميال لافتة بالعبرية تشير الى خط الهدنة . وستجد الحراس الاسرائيليين على قمم التلال من الجانبين يأكلهم الضجر وتلهفين على تسليته انفسهم باطلاق الرصاص على اى انسان . وهكذا تعجز عن الوصول الى مسقط رأسك وانت على قيد كيلو مترات الليلة منها !

وفتن انطون بالثقة ولهجة الجد اللتين يتحدث بهما وليد ، وازدادت مكائته في نظره وهو يسمعه يقول :

— ان اهل ابي في الظهيرية فلاحون فقراء كما قلت لك . ويقيم معهم الآن عمى منير الذى هاجر معنا من بئر سبع وكانت له في ضواحيها ارض واسعة تغل عليه رزقا طيبا ، وكانت له غيضة برتقال وحديقة خضر ودواجن يبيع ثمراتها في سوق المدينة كل اسبوع . وقد صارت كل هذه الاراضى الآن وراء خط الهدنة . ولكننا نستطيع ان نراها عبر الوادى ونميزها بأجمة الزيتون . وعمى يقول ان من واجب الفلسطينيين التسلل عبر خط الهدنة لا لالتقاط شئ من ثمار بساتينهم المفتوحة او لزراعة جانب من الارض التى تسمى الآن بالشقة الحرام — فذلك لا يستحق العناء والمجازفة — بل للاتصال ببقيّة الفلسطينيين العرب المقيمين في الارض المحتلة لتنظيم حركة جدية بالتعاون معهم . بيد انه يقول ان الاوان لم يحن بعد

لتنظيم المقاومة . فلا بد لها من استعداد . ولكن يومها آت لا ريب . فليس أمامنا سبيل آخر لتحرير بلادنا بأيدينا كما هو واجبنا . ولا أكتفك انى كنت أحلم اثناء زيارتى لوالدتى فى المائحة بأن القوات العراقية التى كنت ابصر معسكرها خارج البلدة سوف تتحرك يوما للانقضاض على حدود الأرض المحتلة والقضاء على اليهود وتحرير الوطن . ولكن هذا الحلم تبخر مع الزمن بعد أن اسعدنى فترة من الوقت . وأنا الآن واثق أن فلسطين يجب أن يتحرر بيد ابنائه قبل كل شيء . وأن الآخرين لا يمكن أن يساعدونا من غير أن نساعد نحن انفسنا . ولهذا السبب يا أنطون قررت أن اصبح معلما . فالمعلم له تأثير هائل على تلاميذه ويستطيع أن يحفزهم للنضال والتضحية . والنضال والتضحية فى سبيل حرية فلسطين هما أحوج ما نحتاج اليه . وأتمنى بعد سنوات قلائل أن يتاح لى التعليم فى مدرسة (الظهيرية) .

- ١٣ -

وكان يوسف يتظر في اشمئزاز الى الحارة الضيقة الطافحة بالنفايات التي امر بالدخول فيها عند وصولهم الى مدينة الخليل العتيقة . وازداد استياؤه وتوجسه عندما امر بالوقوف بالسيارة قبالة بيت قديم متصدع يحتل واجهته حائوت لبيع المصنوعات الزجاجية الملونة والخرز والحلى الرخيصة ، كى ينزل السيد الصغير وصديقه .

ويوسف ينتمى الى بيئة كهذه تملأها في اللد . ولو خير لاختار البقاء هناك قانعا بحياته ، ولكن أمانته لعمله تجعله لا يرضى لابن سيده ما يرضيه لنفسه . وقال قبل انصرافه انه سيعود ان شاء الله بعد غد . وكرر ذلك لسيدة الصغير في حزم . ولكن استيائه من نزول ابن بطرس منصور في هذا البيت لم يمنعه من قبول الدعوة بكل سرور لاحتساء كوب من الشاي في ذلك الحانوت المتواضع قبل ان يتجشم مشاق الرحلة المظنية عائدا الى اريحا .

وصعد وليد مع صاحبه سلما معتما داخل البيت ليقدمه الى خالته وابنائها وبناتها . وكان وليد يحب خالته لشدة شبهها بأمه التي كان يحبها اعظم الحب .. وخالته هذه سوداء العينين ، في منتصف العمر ، تتموج خصلات شعرها الاشيب فوق جبينها من تحت طرحة بيضاء ، وقوامها النحيل مختفئ تملأ تحت ثوب طويل من الصوف الزمادى . وهى ذات ابتسامة عذبة وبشاشة استطاعت أن تمحو بهما خجل انطون المعهود امام الغرباء .

وكان واضحا جدا ان وليدا سعيد غاية السعادة بلقاء خالته وأولادها ، اذ قبل يدها ولاعب اولادها الصغار وبدأ

عليه الانطلاق على سجيته بصورة لم يعهدها فيه انطون من قبل ، وهو الذى يعرفه فى المدرسة متعاليا منطويا شديد الاعتداد بتفوقه الذهنى . أما فى اريحا فوليد على الدوام ابعد ما يكون عن الاتيهار بالببيت الفخم والمكانة الاجتماعية الرفيعة التى يتمتع بها بطرس بك . أما هنا فى الخليل بين أهل امه فهو شىء آخر . انه فرد فى اسرة .

وغبطه انطون على هذه الطلاقة التى لم يشعر بمثلها شخصا وهو فى بيت داود مع بنات عمته وزوجها ، فيما عدا بعض اللحظات القلائل التى يقضيها منفردا بابنة عمته « ثريا » .

وزوج خالة وليد صاحب ذلك الحانوت المتواضع رجل جم النشاط ، ذو شارب صغير أتيق وابتمامة ودية لا تفارق شفتيه . ولديه قدرة على اجتذاب قلوب زبائنه واقتناعهم بسهولة انه يكرم كلا منهم فى الأسعار اكراما خاصا . وكان ابنه الاكبر فؤاد يساعده فى أعماله ، وهو شاب وسيم رقيق الحاشية بارع فى الاقتناع براعة ابيه الذى اعفاه من العمل فى ذلك اليوم ليصحب ابن خالته وضييفه فى تجوالهما هنا وهناك داخل البلدة وضواحيها .

وتعجب فؤاد عندما عرف من انطون انه رغم بلوغه الثالثة عشرة لم يزر انجلترا مرة واحدة ، حيث يقيم جده لأمه . وسأله :

— ألم تذهب والدتك الى وطنها مرة واحدة ؟

فابتسم انطون وقال :

— انها تقول دائما ان فلسطين وطنها .

— لم يعد لهذا الوطن وجود !
وعندئذ تدخل وليد فى الحديث بسرعة قائلا :

— بل سيعود الى الوجود اذا جاهد الفلسطينيون لاستعادته !

— على أيام احفادنا او ابناء احفادنا !

— بل قد يحدث ذلك في ايامنا . كل شيء يتوقف علينا !

— وما رأيك انت يا انطون ؟

— وليد على حق يا فؤاد . فلو استطعنا تنظيم حركة للمقاومة في الأراضي المحتلة ..

— فكرة جميلة . ولكنها مجرد حلم !

وعندئذ ثار وليد وقال لابن خالته :

— واسرائيل ؟ الم تبدأ فكرتها بحلم اشد من هذا الحلم امعانا في الخيال ؟ لو سيطر هذا الحلم على قلوب مليون فلسطيني شاب فلا بد ان يحفزهم على تحويل الحلم الى حقيقة ، بالاصرار والكفاح !

* * *

ولم يصحب فؤاد وليدا وانطون الى الظهرية في اليوم التالي لأن ابيه كان بحاجة اليه كي يعاونه في الحانوت . ولكن وليدا استعار منه دراجته للذهاب الى الظهرية ، وحصل لانطون على دراجة أخرى ، وانطلق الاثنان في الطريق الأبيض المترب — طريق بئر سبع — صوب الحدود . وهى طريق كثيرة المنحنيات تحف بها التلال الجرداء البركاتية والصخور وكتل الحصى والجلاميد . وبين الحين والحين كانت تطالعهما حقول صغيرة يحرقها رجال ونساء مستعينين بالجمال والبغال .

وقال وليد لانطون وهما على الطريق :

— عندما كنا نقيم في بئر سبع كان من عادتنا أن نذهب بالسيارة العامة من هذا الطريق نفسه لزيارة خالتي في

الخليل . وفي بعض الأحيان كنت اذهب الى هناك مع بعض اخوتي بالدراجة ونستريح في منتصف الطريق بالظهيرية . أما الآن فلا نستطيع ان نتجاوز الظهيرية بأكثر من تسعة كيلو مترات بسبب خط الهدنة . ولذا أصبح طريق بئر سبع مهجورا ، وهو الطريق الذى كان يسلكه الناس من قبل الى القاهرة بغير عائق !

وبعد ان قطعنا في الطريق نحو ساعة انفسح الأفق امامهما وابصرا قرية صغيرة على جانب تل يبعد عن الطريق قليلا فصاح وليد :

— الظهيرية ! ولكنى احذرك من خيبة الأمل عندما ترى بيت جدى . فهم فقراء جدا . ولكنهم سرحبون بنا أحر ترحيب . وبين صفوف من البيوت المبنية بالطين وقد تصدعت جدرانها ، وخرجت منها كلاب هزيلة نابحة يزيد عددها على عدد أشجار التين ويكاد يتساوى مع عدد الأطفال الحفاة في أسماهم البالية ، شق الرحالتان طريقهما . وفجأة ظهر غلام فى جلباب رث مخطط ورحب بوليد وعائقه وقبل وجنتيه ، وقدمه وليد لانتون :

— ابن عمى سعيد .

وقال سعيد ان أباه وجده فى الحقل ولكن امه والأطفال و « جدته » فى البيت . وانه سيصحبهما الى الحقل بعد أن ينالا قسطا من الراحة ويشربا الشاي ويغتسلا . ودخلا فناء تغمره الشمس ويلعب فيه عدد من الأطفال الصغار تحت نظر امرأتين احدهما بدينة عجوز والآخرى نحيفة شابة مليحة الوجه تعجن جانباً من الدقيق فى وعاء امامها على الأرض . ونهضت هذه الشابة ورحبت بوليد وضييفه . وعرف انتون انها عمة وليد وأن العجوز جدته . وقام وليد بتقديم انتون وأوجز تاريخ حياته فى كلمات قلائل

للمراتين . وكان اهم ما اوضحه لهما ان اسرته من اللد وانهم من بين من اخرجهم اليهود من ديارهم . وظهرت المراتان عطفًا بالك على انطون وما منيت به أسرته من الشدائد .

ثم خرجت زوجة عمه منير من البيت حاملة خوانا نحاسيا تعلوه أكواب الشاي ، مرتدية ثوبا فضفاضًا اسود اللون مزركشا من الجانبين بنقوش حمراء . وخيل لانتون من فرط رقتها انها تطير في الهواء ولا تمشي على الأرض ، وذكرته غزوبة ملامحها بأيقونة قديمة للسيدة العذراء .

وبعد احتساء الشاي وتبادل كثير من الأسئلة عن أحوال الأقارب والمعارف نهضوا جميعا وتولى سعيد قيادة الفلامين وسط تيه من الأزقة الى الأرض المكشوفة التي تحف بها التلال .

ووسط الحقول التي يعمل الرجال والنساء في فلاحتها مستعينين بالجمال والبغال أبصرا دربا غير ممهد يسلكه الناس ويؤدي في النهاية الى ارض عراء تحت سفوح التلال الصغيرة تشغلها عشرات من خيام البدو السوداء . ولاحظ وليد أن انتون يرمق تلك الخيام السوداء باهتمام ، فقال له :

— هؤلاء ايضا لاجئون . لا هورد لهم هنا الا عطف أهالي المنطقة الفقراء .

وعبر الثلاثة دربا آخر وساروا قليلا فوق التربة الحمراء الى أن بلغوا قطعة من الأرض يقوم بعزقها رغم وعورتها وكثرة الصخور فيها شيخ متقدم في السن ، وشاب وسيم في نحو الخامسة والثلاثين .

وانتصب الرجلان عندما أبصرا الفلمان الثلاثة يقتربون منهما . ثم لم يلبثا أن اطلقا صيحات الدهشة والترحيب . ومرة أخرى كان على وليد أن يدلّ لعمه « منير » وجهه

بالبينات الكافية عن زميله وصديقه انطون . وما ان عرف
منير بفرضهما من هذه الرحلة وهى مشاهدته (بئر سبع) عبر
الوادى حتى تأججت حماسته واطهر اهتماما بالفا ، وتطوع
من تشاء نفسه بأخذهما الى ذلك الموضع من التلال الذى
يستطيع المواقف فيه أن يرى — عبر الوادى — ارض منير ،
وبساتين البرتقال ، وحررة الدواجن ، وأجمة الزيتون التى
استولى عليها اليهود ويستغلونها الآن اسوأ استغلال !

— ١٤ —

سار أربعتهم فى درب وعر مسافة لا تزيد على بضعة ياردات
الى أن بلغوا جانب التل فارتقوه ، ليجدوا امامهم منظرا فسيحا
لواد متموج الأديم ، تحده من الجانب الآخر سفوح جبال
صغيرة قائمة الارتفاع كأنها الجدار الأصم ، وقد بدت الأرض
فى أشعة الشمس اللطيفة فى تلك الظهيرة من شهر ابريل
جميلة وأدعة .. فوق المسائر برهة صامتين ينظرون فى
جنبات ذلك الوادى ، وقد استوائت على مشاعرهم المفارقة
المذهلة : بين الجمال الأمن والوحشية الفاصلة التى تتماثل
فى التفريق بين هذه الأرض الموروثة وبين أبنائها الذين أمتزجت
أجساد اجدادهم بقرابها ، ورووا اديما بعرق جباههم سنين
عديدة ..

وقطع الصمت الحزين المتوتر قول الرجل المسن مهمما :
« يا لأرضنا الجميلة السليبة ! » .. وكأنما كانت هذه
الكلمات ايذانا لكل منهم بأن يقول ما يجول فى خاطره ،
فلمس منير ذراع انطون وقال له :
— اترى شجرة الزيتون تلك التى تتراءى هناك عن

يسارك ، فوق مستوى الأرض بقليل ، عند أولى بدارى هذا التل ؟

— نعم . تلك التى هناك قرب النخلات الثلاث .
— تلك زيتوناتي . ومن تحتها حديقة خضرواتي . كيف لا يبرى كل من ينعم بهذه الثمار انه انما يشتري سلعا مسروقة . سلعا مفسوبة من اصحابها الشرعيين ؟

وتأثر انطون تأثرا شديدا ، ولكنه غالب تأثره وقال : « يوما ما ستزرع هذه الأرض بنفسك مرة أخرى ! » .. فقال الشيخ المسن فى هممته الخفيضة : « ان شاء الله يابنى . ان شاء الله . » .. ولكن منير أجاب بحدة : « سواء زرعتها أو لم ازرعها بنفسى ، فيوما ما سأعود ! »

ثم استداروا بوجوههم ومشوا فى صمت عائدين الى الطريق الرئيسى ، وقد أصبح طريق (بئر سبع) باديا للعيان بوضوح تحت أقدامهم .. ذلك الطريق العتيق الذى يتلوى ويتعرج بين التلال الجرداء التى تطبق عليه من الجانبين .

واستوقف « وليد » « انطون » ليشير له الى الطريق ، وقال : « ليس فى وسعك أن ترى (بئر سبع) من هنا ، لانها تقبع متوارية هناك خلف تلك التلال . والحراس الاسرائيليون جاثمون على رؤس التلال على جانبي الطريق » . وقال منير : « اننا كثيرا ما نراهم ونحن نعمل هنا فى الحقول ، وينظرون الينا من فوق ونحن نعمل . ونحن نعلم انهم هناك يرقبوننا ، وهم يعلمون اننا نعلم ذلك » .

فاستلرد وليد : « وعلى هذا الجانب نقطة مراقبة بها جنود من الحرس الوطنى الأردنى يستطيعون من موقعهم العالم ان يروا الطريق الى مسافة بعيدة بوضوح . وبتصريح منهم تستطيع أن تغمى حتى الأحجار البيضاء الدالة على خط الهدنة . فاذا تجاوزت ذلك الموضع وجدت الطلقات

الاسرائيلية في انتظارك من جانبى الطريق . و (بئر سبع) لا تبعد أكثر من خمسة عشر كيلومترا ، للسائر من هذا الطريق . تصور هذا ! انها مسافة لا تزيد على المسافة التى قطعناها من الخليل الى هنا ! ولكن الطريق لا يصلح الا وسيلة للهداية المؤقتة ، لأنك متى أوغلت في الوادى غاب الطريق عن نظرك وراء التلال . فاذا درت حول التلال صرت في محاذاة الطريق مرة أخرى .. ! »

وكان « سعيد » قد لحق بهم ، فقال ضاحكا : « جميع التفاصيل واضحة في ذهن وليد . حتى لتحسبه وهو يتكلم قد أعد خطة مفصلة للتسلل ! »

فأجاب وليد ، جادا : « هذا صحيح . ولكن الأوان لم يؤن بعد . فلا بد لى من قضاء عطلات كثيرة أخرى هنا ادرس فيها كل صخرة وكل مسلك ، الى أن يهسى في استطاعتى ؟! انصرف على طريقى في ليلة ظلماء لا قهر فيها . بل ينبغى أن

أتى وأعيش وأعمل هنا حتى يأتى جنود الحرس الوطنى والبدو منظرى ويصير في مقدورى أن أغدو واروح من غير أن أثير ريبتهم أو فضولهم ! »

فرمق منير ابن اخيه بنظرة اعزاز وسرور وهم عائدون فوق الأرض المحروثة في اتجاه القرية ، ثم قال بعد برهة :

— يبدو انك رتبت كل شيء سلفا !

— ليس كل شيء . ولكن كل شيء سيكون معدا بجميع

تفاصيله عندما يحين وقت استعدادى للانطلاق ..

وفي البيت جلسوا مرة أخرى في الفناء المشمس فوق عدد من الوسائد والحشايا ، وانعشوا أنفسهم باحتساء اكواب الشاي الصغيرة ، في حين انصرفت النساء وبصحبتهن نساء الجير ان اللواتى جنن كعادة العرب للمساعدة في المناسبات ، كي

يصنعن عذة ألوان من الطعام فوق مواقد مكشوفة صنعنها من قوالب الآجر .

وفي خلال الانتظار الطويل لنضج الطعام ، وجه منير الى انطون أسئلة حول المسيرة المشهورة من (اللد) ، وحول الأحوال في (رام الله) عندما تدفق عليها المهاجرون من اللد وغيرها ، وعن أريحا وما صارت اليه الآن . . وحدثه من جانبه عن بئر سبع . . وشعر انطون بحدائث سنه وعدم كفاءته لهذا الحديث ، وتعنى لو أن أباه كان حاضرا لينهض بإدارة دفة الحديث على خير وجه . بيد أن «منير» اعجب بالغلام كثيرا وناشده ان يقتنع أباه بابقائه هنا فلا يرسله الى الجامعة في انجلترا بعد اتمام علومه الثانوية :

— ابق هنا واعمل مع «وليد» كي تكون واحدا منا !
واجاب انطون انه كان يود ذلك ولكن والده مصمم . واردف :
— في وسعي دائما ان اعود .

— أن شاء الله . ولكن المرء لا يستطيع ان يكون على يقين من امر العودة . فما ان تغادر مكانا ما حتى تجد من الصعب جدا في بعض الأحيان ان تعود اليه . هذه تجربتي وتجربة كثيرين .

وغدا الحديث عموميا . ونهض وليد بجانب كبير منه في براعة ، ففاضت نفس انطون بالاعجاب به . فما أروع ان يكون للمرء صديق لامع كهذا . . وقمى من أعماق قلبه ان تمر السنوات سريعا كي يقارب وليدا في المستوى الثقافي والذهني . وخطر بذهنه انه حين يغدو في السادسة عشرة ووليد في الثامنة عشرة لن تكون الهوة بينهما بهذا العمق .

وبعد أكثر من ساعة اقبلت زوجة منير فدعتهم الى الطعام ، فنهضوا أولا الى ركن من الفناء حيث قام سعيده بصب الماء

على ايديهم من ابريق نحاسي له ميزاب طويل . وجففوا ايديهم بقطعة من القماش الأبيض التظيف ، ثم دخلوا الدار .

ويذا داخل الدار في البداية شديد العتمة . ولكن عندما تعودت العيون على تلك العتمة رأوا امامهم مائدة مستديرة منخفضة جدا — «طبلية» — موضوعة على الأرض في وسط الحجرة وعليها أطباق كثيرة ، تتوسطها قصعة بها تل ضخمة من الأرز باللوز ، وقد دسست فيه ارباع من الدجاج المحمر . وكانت النساء قد انتهزن فرصة انشغال الرجال بغسل ايديهم فأتين بالوسائد والحشايا من الفناء ووضعنها حول «الطبلية» .

وجلس منير وابن أخيه وضيف ابن أخيه . ولما كان انطون ضيف الشرف في تلك الوليمة فقد دس منير يده في جبل الأرز واستخرج قطعة ممتازة من الدجاج المحمر قدمها اليه .

ولم يكن انطون قد جرب الأكل على هذه الطريقة من قبل . وقد وجدها طريقة طريفة، لولا انها صعبة على من لم يتعودها . وبطبيعة الحال كان اكل الدجاج باليدين اسهل من اكل الأرز بلقم كبيرة من الخبز .

ولم تأكل النساء مع الرجال بل انصرفن لخدمتهم . وعندما قارب الطعام نهايته ذهبت زوجة منير لتصنع القهوة ، وعاد الرجال الى الفناء حيث غسلوا ايديهم واسترخوا فترة قصيرة فوق الحشايا وهم يحتسون القهوة العربية المرة السوداء . وبعد قليل اعلن وليد انه لا بد ان يشرع وصديقه انطون في رحلة العودة الى الخليل ، فخرجت الأسرة عن بكرة أبيها الى الطريق الرئيسية لوداعهما ، والحووا عليهما بتكرار هذه الزيارة في وقت قريب ، ثم شيعوهما بالكثير من صيحات «مع السلامة» ودعوات الرعاية والتوفيق .

وقال وليد بحرارة ، وهما يدرجان بين التلال الجرداء :
 « انهم قوم طيبون . وانا اشعر دائما بالأسى عند فراقهم .
 ولكنى سأأتى يوما ما واعيش بينهم ، وسأحضر معى والدى . »
 . . ثم ضحك ضحكة سعادة صافية ، واستطرد : « سنكون
 عندئذ معا مرة أخرى ، على طريق (بئر سبع) ! وانى لأهل ان
 تأتى عندئذ وتستقر معنا هنا . وسنعد العدة للتسلل الى
 (بئر سبع) معا يا عزيزى انطون ! »
 فأجابه انطون بحماسة :
 — ان شاء الله !

— ١٥ —

تركت زيارة (الظهيرية) فى نفس انطون اثرا عميقا ، وظل
 يفكر فيها باستمرار عند عودته ، ويدير فى رأسه الأمور
 التى حدثت عنها « وليد » وعمه حول طريق (بئر سبع)
 القديم الذى لا يجسر الآن انسان على السير فيه ، بسبب
 قفصة اليهود المتربصين فى التلال على جانبيه وعند منعطفاته
 الكثيرة .

وكان رد الفعل لديه لأحاديث وليد — عن التسلل وانشاء
 حركة مقاومة داخل اسرائيل — لا يعدو ان يكون ضربا من
 خيالات صبيان المدارس فى ذلك الحين ، ولكن كانت فى تلافيف
 هذه الخيالات بذور مختمرة لأفكار غرسها « وليد » فى ذهنه
 الغض .

واستطاعت الحياة العادية فى المدرسة ان تستأثر بعد حين
 بمعظم اهتمام انطون ، ولم تعد القضية الفلسطينية ذات شأن
 كبير فى نظره . ووليد نفسه شغله الاستعداد للامتحانات عن

الخوض في موضوع القضية الكبرى وتحرير الوطن السليب من ايدي الفاصبين .

وطغت حرارة الصيف المخيفة مرة اخرى على (اريحا) ، فظل انطون مقيما في (رام الله) . وارهقت هذه الحرارة اعصاب ماريان الى حد الاعياء ، فراح بطرس يحثها باستعراة على الصعود الى التلال الرطبة . ولئن كانت غير ميالة للاقامة في رام الله مع منى وخليل ، ففي وسعها على كل حال ان تقيم مع والدي نصرى في بيتهم بضواحي القدس . وان كانت كارهة للذهاب الى هناك وحدها فهو مستعد ان يذهب معها وان يبقربجوارها بضعة اسابيع .

وكان ردها على مثل هذا الكلام ابتسامة اعزاز ، ثم كانت تعيد عليه قولها الذي تكرره دائما : « ان البقاء حيث نحن يتقاضانا مجهودا اقل من الانتقال الى اى مكان آخر ، بحيث تبدو الحرارة في ظل الراحة امرا محتملا . » . فقد كانت تعلم ان بطرس لا رغبة لديه في مبارحة بيته بأريحا . وانه يفضل تحمل الحر المحرق على الاضطراب لجاذبة اطراف الحديث مع من يلتقى بهم من الناس متى غادر ذلك البيت ، فان (دار السلام) بأريحا هى واحة الأمان الوحيدة له في هذا العالم المنقسم .

.. وكذلك كانت زوجته ماريان ، تؤثر عذاب الحر على نجاة الحياة العائلية الصاخبة في بيوت اصهارها . وكأنت تذهب الى سوق اريحا احيانا مع الطاهى يوسف او زوجته لشراء لوازم البيت او احضار البريد . وكان والدها يرسل اليها الطبعة الاسبوعية من « التايمز » بالبريد الاسبوعى ، كما ترسل اليها امها بطريق البحر احدى المجلات النسائية الحافلة بوصفات للطهو بعيدة عن التوفيق ، ونماذج للزياء

اشد بعدا عنه ، وقصص غرامية لا يمكن ان تدخل في عقل انسان راشد . وكانت امها تصر على موافاتها بتلك المجلة كي تبقى على اتصال بما يجرى من حياة عائلية للطبقة الوسطى في انجلترا . ومن حين لآخر كان والدها يرسل اليها ملحق (القاييز) الأدبي لتظل على اتصال بالثقافة الانجليزية ، العالمية . . وهكذا كانت ماريان تجلس في الشرفة بجوار المروحة عندما يشتد الحر ، وتأخذ في قلب صفحات هذه المطبوعات وفي ذهنها من الهود ما يمنعها حتى من قراءة العناوين بطريقة مجيبة !

اما في المساء فالحرارة تهبط بضع درجات ولكنها لا تصل الى الحد المنعش ، فتتعثى ماريان مع بطرس في الشرفة التي تطوقها الاسلاك الرفيعة بشبكة تمنع عنها الهوام ولا سيما الناموس . ومن جوف الظلام الحالك تتراعى اليهما اصوات الجنادب في الحديث . وبين الحين والحين يأتيهما عن بعد صراخ ابن آوى ، فترتعد فرائص ماريان خوفا . . وبمجرد الانتهاء من تناول العشاء وانسحاب الخدم ، يضطجع الاثنان في كراسي القش المنخفضة ويصفيان للاذاعات . . ففي بعض الليالى تذيع محطة بيروت برنامجا جيدا من الموسيقى الغربية . ولكنهما يهتمان في الغالب بالاصغاء للانباء وللاغاني الشرقية الغرامية التي تفيض اسي وشجنا . . ثم يأويان في النهاية الى فراشهما ، لا ليخلدا للنوم — لان الحرارة الخائفة لاتسمح بذلك — بل لمجرد الاستلقاء تحت المروحة الكبيرة المعلقة في السقف والاسترسال في احاديث متقطعة ، تفصلها فترات صمت طويلة .

وفي بعض هذه الاحاديث قد تثير ماريان ذكر الحياة السابقة في (اللد) . . وحين تصمت تفكر بينها وبين نفسها في زوجة بطرس الاولى ، ويخامرها الفضول بصدها ، رغم ازدرائها

لها . اما بطرس فيطرق في شرود ويفكر فيما عساها كانت تكون عليه حياة ماريان لو انها لم تسمح لنفسها بالتورط في زواجه . انها كانت حرة الآن ان تكون في انجلترا مع ابويها ، متزوجة من رجل انجليزي يقاربها في السن ، بدلا من الاضطجاع فوق هذا الفراش مع رجل مسن عليل ، تصطلي حرارة اريحا المحرقة تحت مستوى سطح البحر !

وعندما تلح عليه هذه الافكار الحالكة ، كان يتحسس في الظلام باحثا عن يدها ، كي ترتد اليه الطمأنينة عندما يتلقى على يده ضغطة الاستجابة من يدها .
وفي احدى تلك الليالي ، قال لها : « لماذا تزوجتني يا عزيزتي المسكينة ماريان ؟ ماذا كسبت من وراء ذلك ؟ »

- شئنين : انت وانطون !
- زوج مسن وولد وحيد . وحتى البيت المناسب ضاع من يدك . ولم تبق لك الا (اريحا) على مدار السنة !
- لطالما احببت (دار السلام) واحببت اريحا .
- انك لم تذوقى عذابها في أغسطس من قبل !
- كل شيء يتعوده الانسان بالتدريج .
- اعترفى على الاقل انك تتوقين لانجلترا منذ حللنا هنا !
- لماذا تقول هذا ؟ انى لم اتشوق الى انجلترا ! بل تشوقت للدول (دائرة الخير) ! ولكن كان من الجائز ان نهلك في البرية كما هلك كثيرون غيرنا . فالحمد لله اننا وصلنا سالمين الى هنا واجتمع شملنا ! ان الحر شديد فلا تجعلنى ابكى لكلامك هذا !

ثم تنفجر باكية فيخفى ذلك من توترها العصبى .

وفي اول ذكرى للخروج من اللد استولت على بطرس رغبة

محمومة في السفر الى الحدود والنظر عبر السهل الساحلى الى البحر . وربما استطاع أن يقف في موضع ما يبصر منه اللد نفسها . وفي هذه الحالة لا بد من تصريح من السلطات العسكرية . ولكن مثله لن يجد عناء شديدا في الحصول على ذلك التصريح .

واستولى الأسى على ماريان عندما اخبرها برغبته في طلب ذلك التصريح وقالت :

— كيف يمكن ان تتحمل منظر اللد من بعيد وانت عاجز عن دخولها ؟ سيكون وقع ذلك سيئا عليك .

— بالعكس . ان السجين يجد سلوى في مشاهدة زوجته عندما تزوره من وراء القضبان ، مع أنه عاجز عن معانقتها !

— ولكن الانفعال سيكون قاسيا عليك !

— لن آخذك . سأخذ معى انطون وسيتولى يوسف القيادة .

— لا أستطيع البقاء هنا وتركك تمضى مع انطون . وما

دمت مصمما فسنذهب كلنا كما قطعنا كلنا تلك المسيرة عند

الخروج . وأنا واثقة ان المسألة كلها خاطئة من اساسها !

— ليس بالنسبة لى يا عزيزتى . ان هذه الرحلة لا غنى

لى عنها . وانها اشبه بالذهاب الى الكنيسة في عيد الميلاد

أو عيد الفصح ! انها فرار مقدس . بل حج !

— ١٦ —

اعدت الترتيبات للقيام بهذه الرحلة في صباح السبت كى

يتسنى لانتون الاشتراك فيها . وانطلقوا بمجرد شروق

الشمس مختبرين الوادى الى (رام الله) . وكان يوسف

كارها للقيادة في البرية فاقترح الذهاب عن طريق القدس ،

على اعتبار أن الحالة الآن هادئة .. ولكن بطرس اعترض

بشدة ، لا خوفا من القناصة بل لانه كان لا يطيق أن يرى
المدينة المقدسة مقسومة ، وأن تكون بعض معالمها الحبيبة
في أيدي اليهود !

وتذكرت ماريان في تلك الرحلة اسفارها القديمة . وتذكرت
على الخصوص رحلة القدوم الى اريحا منذ سنة ، في اول
عهدهما بالهجرة . ووقع نظرها على مخيمات اللاجئين من
البدو ، وحول خيامهم السوداء قطعان الماعز ، وبضعة جمال
ترعى الشوك في البرية ، وغجبت كيف يستطيع هؤلاء الناس
أن يعيشوا في ارض خالية من الماء .

ووصلوا الى (رام الله) في نحو الثامنة صباحا ، فاذا بالهواء
المنعش محمل بعير أشجار الصنوبر ، فراحا يملآن صدريهما
في سرور وكل منهما يرمق الآخر باسم . ولا شك أن يوسف
لم يكن اقل منهما سرورا وهو يستنشقم ذلك الهواء المنعش
أمام عجلة القيادة . وكانت رام الله قد خلت تقريبا من اللاجئين
الذين كانوا يبيتون على ارصعة شوارعها وفي ظلال زيتونها ،
بعد أن قامت السلطات بترحيلهم الى معسكرات القيمة على
سفوح التلال .

وكان فريد وماجدة ونادية وانطون ووليد وبنات داود
يتناولون جميعا الافطار في الشرفة الكبيرة بالطابق الاول ،
عندما وقفت سيارة بطرس منصور امام بوابة الحديقة ، ونفخ
يوسف في بوقها ، فنظر الجميع صوبها واسرع انطون يهبط
السلالم ويخترق الحديقة لاستقبال ابويه .

وكان وليد موجودا لأن انطون الحج على أبيه في اصطحابه الى
(بدرس) وهي قرية على الحدود تواجه (اللد) . وكان سرور
وليد عظيمهما عندما سمح بطرس بك بذهابه معهم ، **والحقيقة**
أنه استبشر بقيام آل منصور بتلك الرحلة لأنها ستكون من

شعور انطون بمأساة الاحتلال والتقسيم حين يقف على الحدود ويرى مسقط رأسه على مرمى البصر وهو عاجز عن الوصول اليه لأن الفاصيين يحتلونه !

ومكث آل بطرس منصور ساعة لتناول القهوة وتبادل الأخبار ومنها أن نصرى عين فى الفيلق العربى ، وان نادية ستضع طفلها الجديد — من زوجها — فى نهاية الشهر ، وسيحضر نصرى يومئذ فى اجازة . اما « منى » و خليل فكاتا غائبين عن الدار فى زياره لوالدى خليل فى (جنين) الواقعة فى الشمال . واعتذر فريد من عدم قبول الدعوة للانضمام الى المسافرين صوب (بدرس) لأنه بدأ مشروعاً جديداً هو ادارة «جارج» مع لاجئ فلسطينى آخر ، وعليه أن يعنى بأشياء كثيرة منها انه سينتقل مع ماجدة ونادية الى « شقة » فى وسط المدينة بالقرب من « الجارج » بعد ولادة الطفل مباشرة . واتفقت كلمة الجميع على أن بطرس يبدو منحرف الصحة ، وان ماريان يبدو عليها الاعياء ، وانهما يخطئان خطأ فادحاً بالبقاء فى أريحا طوال الصيف ولهما بيت مفتوح لاستقبالهما فى رام الله . ولم يجب بطرس وماريان على ذلك كله بغير الابتسام والاعتذار .

وفى النهاية انطلق الركب صوب (نعلين) ، وانطون يشرح لصديقه « وليد » معالم المسيرة التى قطعها فى البرية مع عشرات الآلاف من المهاجرين من (اللد) . وكيف أن الحظ وآتاهم فوصلوا سالمين لأن سيارة زوج عمته خليل داود حضرت لتقلهم من مسافة بعيدة . ولكن الوفا غيرهم هلكوا فى البرية !

وعند قرية (نعلين) طلب انطون من اميه ان ينتظروا ليلًا كي يرى صديقه « وليد » معالم المفاخرات التعسة التى حدثت فيها منذ عام ، وكيف كان عشرات الآلاف يتكالبون على تبع

الماء الوحيد ! .. أما بطرس وماريان فكنا ينظران الى هذه المواضع المثيرة للشجن ولا يتكلمان .

وبعد قليل استأنفت السيارة مسيرها الى نقطة للمراقبة يحف بها نبات التين الشوكى . فأبرز بطرس التصريح الذى يحمله ، وركب فى مؤخرة السيارة رجل من الحرس الوطنى ليصاحبهم حتى قرية (بدرس) * ، وبطرس جالس بجوار السائق قابضا بيديه على عصاه ومنحنيا الى الامام مطبق الشفتين ، يحدق فى السهل الساحلى المترامى من تحته ، ذلك السهل الذى يفضى الى البحر . انه سهل فلسطين المحرم على الفلسطينيين !

وعلى جانبي الطريق كان الأطفال الحفاة العجاف يخرجون بعيون لامعة ليلوحوا بأيديهم للسيارة وليجروا وراءها . وعندما انتهى الطريق الوعر الى موضع لا يصلح لمسير السيارة ، توقف يوسف ونظر الى سيده متسائلا . فقال له بطرس : « انتظر » .

ثم نزل ، تتبعه ماريان والصبيان وجندى الحرس الوطنى الذى قادهم الى مرتفع من الأرض على سفح التل ، وراء آخر بيت من بيوت القرية . وهناك وقفوا جميعا ينظرون الى السهل من تحتهم . وعلى مسافة قريبة ، وسط الضباب الذى تصعده الحرارة الشديدة ، قال لهم الجندى ان مدينة (اللد) تقع هناك . ثم خلع نظارة اليدان من عنقه وسلمها لبطرس الذى شكره ووضعها على عينيه وراح يضبطها ، ثم جمد فى

* دمر اليهود بالقنابل تلك القرية الصغيرة بعد أربع سنوات من ذلك التاريخ ، فى سنة ١٩٥٣ ، عندما هاجموا فى نفس الوقت قرية (قبية) القريبة منها ونسفوا بالديناميت ٢٢ بيتا على سكانها ! .. ومن فر منهم حصوده بالرصاص ، فكانت مذبحة أشبه بمذبحة (دير ياسين) !

مكاته وركز حواسه كلها فى عينيه : ها هي مآذن المساجد
وأبراج الكنائس وصهريج الماء . ها هي المعالم المألوفة
فى المدينة الحبيبة . وبعد دقيقتين التفت الى ماريان وهما اليها
يده بالنظار وهو صامت ، ولكنها هزت رأسها . . فقال انطون
فى لهفة بالغة : « أنا من فضلك يا أبى ! »

فقدم اليه أبوه المنظار ، ولم يلبث ان صاح الفتى : « كل
شئ يبدو فى غاية الوضوح ! »

فقال بطرس بألم : « ما عدا بيتنا ! »

— ولكنى أرى بيوتا كثيرة غيره . وأشجار النخيل فى
الحدائق . أنظريا وليد ! ها هي اللد ! وبيتنا هناك وفيه
كل مقتنياتنا . تصور !

وتناول وليد المنظار من انطون . واعتمدت ماريان على
ذراع زوجها وقد اشتد اضطرابها ، فربت على يدها بحنان ،
وتراجعا صوب السيارة تاركين انطون يشرح لصاحبه « وليد »
معالم بلده . أما هما فلم يتكلما وإنما جلسا فى السيارة صامتين
اذ لم يكن لديهما ما يقولان فى تلك اللحظة التى تفيض مرارة
وألما تعجز الالفاظ عن سبر غورها . .

— ١٧ —

وبعد هذه الرحلة ساءت حالة قلب بطرس ، الذى عارض
ماريان فى استدعاء طبيب من رام الله — فهو لا يؤمن
بالأطباء وحسبه ما اديه من عقاقير — وأبى ان يصفى لها
تكرره زوجته عن الأدوية البتكرة لعلاج القلب . وهو على
الخصوص لا يريد أن يعلم احد من أقاربه بمرضه حتى
لا يحتشدوا حوله ويحملوه قسرا الى المستشفى الأمريكى .

انه يأبى أن يبارح (دار السلام) في اريحا الا ليرقد في منازل السلام رقدته الابدية بالقدس .

وخلال شهرى يوليه وأغسطس القائطين كان يمضى سحابة النهار في شرفة الطابق الأرضى وأمامه بساتين البرتقال التى توهمه أوراقها الخضراء المتشايكة بأنها تطلق الحرارة بعض الشيء . ولم يصعد الى الطابق العلوى مرة واحدة بعد عودته من زيارة الحدود لانه أصيب بنوبة قلبية عقب وصوله الى اريحا مباشرة . وكانت أسوأ نوبة اصابته حتى الآن .

ولم يكن يستطيع — وهو جالس فى الطابق الأرضى ، فى ظلال أشجار السرو — أن يرى معسكر اللاجئين ، على سفح التل الأجرد ، ولكنه ليس بحاجة الى رؤية المعسكر كي يتذكر ألوف الرجال والنساء من المسنين والأطفال الذين ينتظرون هناك يوم العودة الى ديارهم وأراضيهم ، وهم فى أسوأ حال ، يقتاتون بالنزr اليسير من الصدقات !

وكانت انباء الاذاعة والصحف تتحدث عن « لجنة فى الأمم المتحدة لرعاية أحوال اللاجئين الاقتصادية » . . ولكنه لا يثق باللجان الا بمقدار ما يثق بالاطباء ! وهو واثق أن اللجنة ستقترح مشروعات للعمل فى البلاد التى تستضيف اللاجئين ، متجاهلة أن الفلسطينيين لا يريدون الا شيئا واحدا . وهذا الشيء الواحد هو : العودة !

وبالفعل تكونت فى ديسمبر وكالة للاغاثة والتشغيل لرعاية اللاجئين الفلسطينيين . ولكن بطرس منصور لم ييلفه هذا النبأ ، لانه كان قد مات منذ ثلاثة شهور ! لقد وافاه الأجل فجأة فى أوائل اكتوبر بعد عيد ميلاد انطون الثالث عشر ، فى ساعة مبكرة من الصباح . وكانت ماريان قد غادرت الحجرة التى ينامان فيها لتستشق

الهواء في الشرفة ، عقب استيقاظها كعادتها كل يوم .
وصافحت أنفها رائحة القهوة منبعثة من المطبخ . وفجأة
سمعت صرخة متحيرة من ورائها ، فالتفت لترى بطرس
جالسا على حافة الفراش يحدق فيها ولا يستطيع ان يتكلم .
وقبل أن تصل الى المنضدة لتأتيه بالحبوب المسكنة كان قد
سقط بثقله كله بين ذراعيها ، فصاحت :
— انطون ! انطون !

وأسرع الصبي اليها ، ورأى وجه أبيه ، وادرك كل شيء !

* * *

وفي الليل رقد الفتى وأمه في الظلام جنباً الى جنب .
وتذكرت ماريان كيف كان بطرس يرقد هكذا ويمسك بيدها
ويقول لها :

— عندما ينقضي أجلي لا تبقى هنا . اذهبي الى أبويك في
انجلترا . ولا بد لآنتون من الذهاب الى هناك عما قريب
على كل حال . وسيتولى خليل إدارة هذه الضيعة ، وسيكون
أدبك من المال ما يكفي لإرسال انطون الى المدرسة . لن
تكون لك حياة هنا من بعدى . أما انا فقد انتهت حياتي منذ
غادرت اللد ..

لقد كان هذا حديثه أيضا اليها عشية الصباح الذي رافقه
فيه النية فجأة .. وكانت هذه مشيئته .

انتهى القسم الأول من القصة ، ويليه القسم الثاني والأخير ،
(وعنوانه : النفى .١٠ ثم العودة) ، ويصدر في منتصف فبراير .

طبعة البريد

أكبر مطبعة في الشرق الأوسط



طابع البريد العصري خمس سفيرا بسلالاتنا في النخساج



صبحت مطبعة البريد - التي افتتحت في
٢٢ يوليو سنة ١٩٦١ - مقصد كثير
من الدول العربية والإفريقية، لتطبع
طوابعها العادية والتذكارية.
منها أول مطبعة من نوعها في
الشرق الأوسط، وتستطيع
إبرازها بأصغر النسخة، وآلاتها
الحديثة الدقيقة، أن
تطبع أية كمية بأحسن
مستوى فني. علوة
على ما تقوم به من
طبوعات أخرى.

طوابع البريد التذكارية دائرة معارف متنقلة
وثرثرة تقنا عفا ما بعد عام، وتنفذ فنية رفيعة
فاحص علم أقتصادها وأصل بكتبة هذه الزوايا.